أشجار بلا جذور

صفوت مضحي

اسم الكتاب: أشجار بلا جذور

اسم الكاتب: صفوت مضحي عبد المعطي

تدقيق وتنسيق: نورهان هاني

تصميم الغلاف:

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية

أشجار بلا جذور

مقدمة

لكل أشجار جذور تكون هي سببًا في قوَّتها ومتانتها والحفاظ على النوع والنسب، فالجذور هي الوتد الذي يمد الأشجار بالقوة والحياة.

فكَّرت كثيرًا في كيف نعيش ونحيا في زمن ضاعت منه فرص السعادة والسرور، واستطاع الفشل أن يكون صديق ورفيق العاطل.

لا بد من التأمل والتفكير في هذا الزمن لكي تحصل على حياة جميلة بالعمل والجهد، فالمستقبل يحتاج منك أن تكون مشاركًا فعالًا في إثبات الذات.

لكل واحد فينا جذور تُسقى بالعرق والجهد.. تمتد الجذور إلى آخر الأرض مرتفعة.

الأشجار خضراء الأوراق، وتستقبل العصافير وهي تغني ساكنة مطمئنة.

أشجار بلا جذور

تبدأ القصة في حياة أُسرة سعيد سعد، أسرة صغيرة: الزوج سعيد سعد مسعود، الزوجة ذكية حامد مسعود، هي بنت عمة زوجها. وأبناؤهم: البنت عنبة ست سنوات، وتوأمان عمرهما سنتان. وكانت ذكية حامل في الشهور الأخيرة.

سعيد كان من الصعيد ويسكن في قرية القباب، قرية تابعة إلى قرى المنصورة.

كان يعمل في الزراعة.. عامل زراعة بأجر بسيط، وكانت زوجته تساعده في المعيشة.. كانت تفرش في سوق القرية تبيع خيرات الأرض، والدواجن، وبيض دجاج، وكانت الحالة المعيشية صعبة جدًّا.. رزق يوم بيومه.

وكان للقرية عمدة طيب ويحب سعيد، ويعطف عليه، ويساعده في بعض الأحيان.

بداية الرواية..

جاء مهران مسرعًا إلى بيت سعيد وهو فرحان ومسرور؛ فهو يحمل خبرًا عاش هو وسعيد ينتظرانه.. دق باب بيت سعيد.

سعيد: إيه يا مهران مالك كده بتخبَّط على الباب بالشكل ده؟ إيه برَّاحة شوية يا أخي، أنت إيه معندكش رحمة؟

مهران: أنت لسه نايم؟ اصحى يا راجل.

سعيد: هو فيه إيه يا مهران؟ مالك؟

مهران: جايب لك خبر حلو!

سعيد: أخبارك كلها زي وشك!

مهران: الله يسامحك، بس لما تعرف الخبر اللي أني جاي بيه هتبوس إيدي.

سعيد: أبوس إيدك أنت؟ يا خبر أسود!

مهران: هو مش خبر أسود، ده خبر أبيض قشطة بيضة أو لون اللبن الصافي.

سعيد: اخلص أنت جايب خبر إيه؟!

مهران: الترحيلة.

سعيد: الترحيلة؟

ورجع سعيد إلى الخلف وهو مسرور جدًّا من الخبر، وأخذ يمسك في مهران ويجذبه بشدة، ويقول له:

سعيد: أنت بتتكلم بجد يا مهران؟ (وأخذ يردِّد) الترحيلة؟ ياه استنيتها كتير! وأخيرًا جات.

وأخذ يفكر ويتحدث عن شيلته الثقيلة: أربعة أبناء وأمهم، وهو لم يعد قادرًا أن يصرف عليهم؛ لأن أجره في العمل بالغيط في القرية قليل، حيث يتقاضى قرش صاغ، أما في الترحيلة فيأخذ عشرة قروش، وهذا مبلغ كبير يقدر أن يصرف على أبنائه ويحوِّش كمان.

ورجع بعد أن عاش في فرحة من سماعة للخبر ونظر إلى مهران **وقال له:**

سعيد: أنت جبت الخبر ده منين يا مهران؟

مهران: أنا لسه جاي من عند العمدة وعرفت أنه جاله إشارة من المركز بأن الترحيلة جاية البلد تاخذ أنفار للعمل في الأرض الجديدة اللي الدولة صلَّحتها وعاوزة أنفار يزرعوها.

سعيد: وامتى يا مهران؟

مهران: العمدة قال للمنادي ينادي في البلد اللي عاوز يروح الترحيلة يروح لدوار العمدة ويسجل اسمه.

جاءت ذكية زوجة سعيد إلى زوجها لكي يفطر قبل أن يذهب إلى الغيط، فوجدته يقف أمام البيت، فندهت عليه، فسمع صوتها، فقال لمهران:

سعيد: طب مع السلامة أنت، وأنا هاجي وراك الغيط نكمل كلامنا.

وأقفل الباب وذهب إلى ذكية التي كانت قد جهزت له الفطار ووضعته على الطبلية، وكان عبارة عن فول وجبنة من المش وعيش وبصلة ناشفة.

جلس سعيد على الطبلية لكي يأكل الفطار، فأخذ البصلة وكسرها وهو لا يدري، كل ما جاء في باله الترحيلة، فلاحظت زوجته ذكية أنه يفكر في شيء وأن باله مشغول..

ذكية: إيه مالك بتفكر في إيه؟

سعيد: مهران جالي وقال إن الترحيلة جاية البلد.

ذكية: (ضربت على صدرها بيدها) ترحيلة؟

سعيد: أيوه ترحيلة!

ذكية: ترحيلة إيه؟ هو أنت عاوز تروح الترحيلة؟

سعيد: أومال إيه؟ رزق كتير وجاي نقول له لا؟

ذكية: أيوه نقول له لا وألف لا.

سعيد: أنتي بتقولي إيه يا ولية؟ أنتي عارفة يعني إيه ترحيلة؟

ذكية: عرَّفني أنت يا فالح.

سعيد: الترحيلة بتيجي كل كام سنة تاخذ عمال فلاحة يشتغلوا مدة موسم زراعي وبعدين يرجعوا معاهم فلوس كتير وخير..

ذكية: والأولاد وأنا!؟ ما فكرتش فينا لما تسيبنا الفترة دي كلها راح نعمل إيه من غيرك واحنا مالناش حد في البلد دي؟

سعيد: البركة فيكي، وأنا موصي العمدة عليكم لو حصل ليَّا حاجة ياخذ باله منكم.

ذكية: وامتى السفر ده؟

سعيد وهو يريد أن يكمل الحديث مع زوجته سمع المنادي ينادي، وكان المنادي يحمل طبلة لكي يسمع الجميع صوت الطبلة، وهذه كانت الوسيلة في القرية لإبلاغ أهل القرية بأي خبر.. يدور المنادي في القرية وينادي بالخبر ومعه الطبلة.

سمع سعيد وذكية المنادي ينادي:

المنادي: خبر هام وعاجل إلى عمال الفلاحة في القرية، صدرت تعليمات العمدة للتنبيه على من يريد العمل في الترحيلة عليه بتسجيل اسمه عند دوار العمدة، وآخر يوم للتسجيل غدًا.

سعيد: سمعتي آخر ميعاد لتسجيل الأسماء بكرا.

ذكية: اعقل يا راجل حملك كبير وأولادك صغار، عاوز تروح الترحيلة وتتركنا لمين؟ أنا حامل.

سعيد: أترككم إيه يا ولية! داني رايح أشتغل وأجيب لكم فلوس كتير.. أنتي عاحبك أني أشتغل طول اليوم بقرش صاغ، لكن في الترحيلة اليوم بعشرة قروش.

ذكية: أنت معانا هنا لكن في الترحيلة أنت بعيد عننا.

سعيد: كلها موسم زراعي وتلاقيني عندكم هنا ومعايا فلوس كتير.

ذكية: طب وأنا أعمل إيه؟ والأولاد صغيرين وكمان اللي في بطني يجي للدنيا وأبوه مش موجود؟

سعيد: عندك البت عنبة علميها تاخذ بالها من إخوتها الصغيرين في حال غيابك.

ذهب سعيد إلى دوار العمدة فوجد أنفار كثيرون واقفون يسجلون أسماءهم في الترحيلة والعمدة واقف بجوار الكاتب الذي يسجل الأسماء، فنادى على سعيد.

العمدة: أنت عاوز تروح الترحيلة؟

سعيد: أيوه يا حضرة العمدة.

العمدة: ومراتك وأولادك هتسبهم لمين؟

سعيد: ربنا معاهم، والبركة في حضرتك يا حضرة العمدة.

العمدة: اعقل يا واد يا سعيد وخليك جنبهم.

سعيد: طب ما أني رايح الترحيلة ليه؟ علشان أجيب لهم فلوس كتير.

العمدة: عيالك صغيرين.

سعيد: ما هو علشان كده رايح الترحيلة.

العمدة: أنت حر!

سعيد: خد بالك منهم يا حضرة العمدة.

العمدة: كلكم أولادي وأهل بلدي.

جاءت السيارات التي سوف تحمل الأنفار للسفر وخرجت القرية كلها في وداع أبنائها من أنفار الفلاحة.

وقفت ذكية وهي تحمل أبناءها الثلاثة وبطنها أمامها تنظر إلى زوجها سعيد وهو يركب سيارة الترحيلة مع أنفار الفلاحة.

نظرات خوف ورعب وكأنها تودعه، وتنظر إلى الأولاد وهي تبكي في صمت، العيون تجرف الدموع وكأنها شلالات مياه، وعنبة تحمل أخاها الصغير وتقف بجوار أمها وهي تمسك إخوتها الصغار وهم ينظرون إلى الأب الذي يركب سيارة الترحيلة مع زملائه الأنفار.

انتقلت سيارات الترحيلة مسرعة وسط الزراعات، وذكية تنظر إلى زوجها في حسرة وندم على المجهول وعلى أبنائها، وهي لا تدري ماذا سوف يحدث في المستقبل. بعدت السيارات بعيدًا عن النظر وهي ما زالت تقف وتنظر إلى زوجها، حتى غابت السيارات بعيدًا، فرجعت إلى البيت وهي تحمل أبناءها الثلاثة بعد أن سافر زوجها وتركها وحيدة من دون نفقات، ولا يوجد معها أي نقود.

كانت ذكية تقوم كل يوم في الصباح الباكر لكي تذهب إلى الغيط تعمل من أجل أن يكون معها نقود لكي تصرف على أبنائها الثلاثة، وكانت عنبة تأخذ بالها على إخوتها والأم في الغيط.

ذهب سعيد في الترحيلة بعيدًا عن بلده وأولاده، وأخذ يعمل بجد وهمة من أجل أن يقتنع به خولي الأنفار، واستطاع أن يكون من المقربين عند الخولي، وأصبح عين الخولي على الأنفار يقوم بإبلاغ الخولي بكل ما يحدث من الأنفار، كان ينقل للخولي أسرار زملائه الأنفار حتى جعله الخولي كبيرًا عليهم.

وكانت الأنفار تكرهه لأنه استطاع أن يكون خولي عليهم بطريقة خسة ونذالة وقلة أصل.

وذات ليلة جاء الخولي إلى سعيد، **وقال له:**

الخولي: واد يا سعيد فيه مولد جانبنا في البلد اللي هناك، تيجي نروح نتفرج؟

سعيد: (ابتسم) وماله يا حضرة الخولي.

الخولي: اعمل حسابك.

سعيد: حسابي أنا؟ آه آه.

الخولي ضاحكًا: أنا عارف أنك بخيل ما تخافش مصاريفك عليَّا.

سعيد: (بمكر) لا، هو مش موضوع بخل!

الخولي: أنت ما بتحبش تصرف أنا عارف.

سعيد: أصل.. أصل..

الخولي: اجري غيَّر هدومك وبلاش تضيع وقت.

سعيد: حالًا أهوه.

ذهب سعيد مع الخولي إلى المولد، وهناك وهما يتجولان من مكان إلى مكان وقفا عند مسرح يقف عليه رجل قوي شجاع يطلب من الناس أن يدخل معه أحد لكي يلابطه (يعاركه)، فنظر الخولي إلى سعيد:

الخولي: تعرف تطلع له يا واد يا سعيد؟

سعيد: لا ده شكله راجل قوي؟

الخولي: عارف لو طلعت له وغلبته هديك جنيه.

سعيد: أنت بتتكلم بجد؟

الخولي: بتكلم بجد، وأدي الجنيه أهوه.

سعيد نظر إلى الجنيه وإلى الرجل العملاق واحتار بين الجنيه والعملاق، وبعد برهة من الوقت اختار الجنيه، فصعد إلى المسرح وأراد أن يعارك هذا العملاق.

نظر العملاق إلى سعيد واستهزأ به، وقال:

العملاق: روح يا ابني العب بعيد.

سعيد: أنا جاي أغلبك وأوريك ازاي سعيد يضرب الرجل العملاق.

العملاق: (نظر إلى سعيد باستهتار) اقرأ الفاتحة على نفسك يا غلبان.. أنت قلت اسمك إيه؟

سعيد: أنا اسمي سعيد.

العملاق: عيد سعيد عليك.

وهمَّ إليه ليطرحه أرضًا.. لكن سعيد بكل قوة حمله إلى أعلى وطرحه أرضًا، وجميع المشاهدين يستغربون لما يفعله سعيد في العملاق، والخولي وقف يصفق غير مصدق ما صنعه سعيد.

سعيد: إيه رأيك بقى أخلَّص على عمرك ولا أقولك (اقرأ الفاتحة على روحك)؟

العملاق: خلاص قوم أنا غلطان، روحي هتطلع في إيدك.. الله يخرب بيتك زي ما خربت بيتي.

وأغمي عليه.

ظن سعيد أنه مات فقام ورجع للخلف وهو خائف.

فجَرَت الغازية شربات إلى سعيد وأمسكت به وهي مسرورة وغير مصدقة لما فعله سعيد بالعملاق، وأخذته إلى الداخل وهي مذهولة به، وأجلسته على الكرسي وجلست تحت قدميه تنظف ملابسه المرقَّعة والممزقة، وتمسك الجزمة المخرومة البلاستيك في يديها وترفعها وتنظر إليه وإلى صورة العملاق المعلَّقة على حائط الغرفة.

شربات: أنت إيه اللي أنت عملته ده يا سعيد؟

سعيد: هو اللي تحداني وأنا...

وقبل أن يكمل كلامه..

شربات: سيبك منه خليك معايا.

ونادت بأعلى صوتها إلى زقزوق الصبي.. وكان زقزوق صبي عالمة..

شربات: يا واد يا زقزوق.. أنت يا زقزوق..

كانت تنادي بحنية وهي تنظر في عيون سعيد.

جاء زقزوق مسرعًا..

زقزوق: نعم يا ست الستات.

شربات: شوف سعيد ياكل إيه.

زقزوق: حاضر يا أبلتي.

شربات: آه وبقولك إيه يا واد يا زقزوق.

زقزوق: أوامرك يا أبلتي.

شربات: (وهي تنظر إلى صورة العملاق المعلقة على الحائط) شيل الصورة دي وارميها في الزبالة.

زقزوق: صورة ال...

شربات قاطعته في الكلام: أنت لسه واقف. اخلص يا واد يا زقزوق ارميها في داهية.

وسعيد جالس وينظر إلى شربات وجمال شربات وبرفان شربات، نسي كل شيء، أخذته من يده ودخلت به إلى غرفتها، وقالت:

شربات: يا واد يا زقزوق.

زقزوق: نعم يا غالية.

شربات: بعد ما الأسد يخلع هدومه ارميها في الزبالة وهات له هدوم جديدة وجزمة جديدة، وكمان هات الحلاق يحلق له شعره وحميه، وهاته بسرعه يا زقزوق.

زقزوق: حاضر يا غالية.

وذهب إلى سعيد وقال له في أذنه:

زقزوق: تعالى يا ابن المحظوظة.

سعيد: (وهو ينزع يد زقزوق) تعالى فين؟ أنت إيه؟ أهبل؟

زقزوق: دي أوامر الغالية؟

سعيد: غالية مين؟ اوعى نزل ايدك.

ودفعه بعيدًا.

زقزوق: ما شاء الله إيه القوة دي؟ براحة عليَّا أنا مش قدك.

سعيد: أنت مالك يا واد أنت؟ ما تنشف وخليك راجل.

زقزوق: أنا مش راجل. أنا زقزوق صبي الغالية.

سعيد: صبي الغالية مين؟ وأنا مالي.

زقزوق: مالك ونص، أصل أنت ما تعرفشي.

سعيد: ما أعرفشي إيه يا أهبل؟

زقزوق: أنا راح أزعل منك، أنت بقيت الأسد بتاع أبلتي.

سعيد: أبلتك مين؟

زقزوق: الغالية شربات.

وأشار إلى الصورة المعلقة على الحائط.

ذهب سعيد إلى الصورة وهو يقول:

سعيد: مش دي الست اللي كانت معايا دلوقتي؟

ونظر إلى زقزوق..

زقزوق: (هز رأسه بمكر) نعم هي.

سعيد: يعني أنا كنت مع الست دي؟

زقزوق: أيوه وكمان هي عوزاك تكون على سنجة عشرة يا ابن المحظوظة.

وانصرف سعيد مع زقزوق كما قالت شربات.

ووقف الخولي خارج المسرح ينتظر سعيد، ولكن سعيد تأخر كثيرًا، فانصرف الخولي عائدًا إلى مكان الترحيلة وترك سعيد ومصيره.

وفي الصباح لم يرجع سعيد وذهب الخولي إلى مكان نوم سعيد ليسأل عنه زملاءه، ولكن لا يعرفون عنه شيئًا، مرَّت عدة أيام ولم يظهر سعيد، وجاءت أوامر الحكومة بنقل أنفار الترحيلة إلى مكان آخر.

ذهب الخولي إلى المولد لكي يبلغ سعيد بالقرار وأن أنفار الترحيلة سوف يذهبون إلى موقع آخر. ولكن كانت هناك مفاجأة، اتفضي المولد وانصرف جميع من كانوا في المولد ولم يجد سعيد، وأخذ يسأل عنه وعن شربات الغازية لكن لم يصل إلى شيء، فرجع الخولي إلى أنفار الترحيلة وركبوا السيارات وتحركت بعيدًا عن الموقع من دون سعيد.

انتظرت ذكية وأبناؤها عودة الأب أو معرفة أي أخبار عنه، إلا أن الفترة طالت دون معرفة أي أخبار عنه، وجاءت مياه الوضع وكانت صرخات ذكية شديدة.

الأولاد الصغار خائفون على الأم النائمة في السرير تعاني من شدة آلام الوضع، الأم أخذت تنادي:

الأم: يا عنبة!

عنبة: نعم يا أمي.

الأم: مافيش أخبار عن أبوكي؟ ولا أنفار الترحيلة؟

عنبة: مافيش أخبار.

الأم: روحي للعمدة وخدي أخوكي الكبير معاكي، واعرفي منه أخبار أبوكي أو أخبار أنفار الترحيلة.

عنبة: حاضر يا أمي.

ذهبت عنبة ومعها أخوها وذهبا إلى العمدة ليسألا عن أخبار أبيهم أو أخبار أنفار الترحيلة.

العمدة كان جالسًا مع كبار القرية يتكلمون في مشاكل القرية، فدخل عليهم الغفير ليخبره بأن أنفار الترحيلة رجعوا، فجرى العمدة ومن معه واستقبلوا أنفار الترحيلة، وكل البلد وقفوا ينظرون إلى السيارات التي تحمل أنفار الترحيلة وهم راجعون، وأصوات الغناء والفرحة تأتي من بعيد، وأهالي أنفار الترحيلة يزغرطون ويطبلون فرحين بعودة أنفار الترحيلة ومعهم الخير كله.

ووقفت عنبة ومعها أخوها ينظران إلى أنفار الترحيلة العائدون وينتظران عودة أبيهم سعيد.

ومنظر رجوع أنفار الترحيلة وهم يأخذون أولادهم وزوجاتهم بالأحضان.. ولم يأتِ سعيد فبكت عنبة بصوت مرتفع في وسط الناس، فسكت الجميع وأخذوا ينظرون إلى عنبة وأخيها وهم ينادون على أبيهم سعيد، فلم يرد، فجاء العمدة ناحيتهم وأمسك بهم وسأل بعضًا من أنفار الترحيلة:

العمدة: فين سعيد؟

فسكتوا ولم يرد عليه أحد، نظر العمدة إليهم جميعا وبأعلى صوت:

العمدة: فين سعيد؟!

رد نفر من أنفار الترحيلة: ما نعلمشي عنه حاجة.

العمدة: ازاي؟ هو مش كان معاكم؟

نفر آخر: نعم يا عمدة، هو كان معايا في الخيمة بتاعتي.

العمدة ذهب إلى هذا النفر وأمسك به وقال:

العمدة: طب راح فين؟ مجاش معاكم ليه؟ (وخفض صوته ناحية النفر) هو حصله حاجة.

النفر: لا محصلش له حاجة.

العمدة: طب هو مرجعشي معاكم ليه؟

النفر: احنا مانعرفشي عنه حاجة.

العمدة: أنت مش بتقول إنه كان معاك في الخيمة؟

النفر: نعم هو كان معايا بس بعد شوية ساب الترحيلة، ومنعرفشي راح فين.

العمدة: لا حول ولا قوة إلا بالله، طب راح فين؟ ومراته وعياله دول سابهم لمين؟

رجعت عنبة وأخوها إلى البيت، وقالت عنبة: طب أقول لأمي إيه؟ أتصرف ازاي واعمل إيه؟

وعند دخولها البيت سمعت أصوات إخوتها يبكون بصوت مرتفع، فجَرَت إلى داخل البيت مسرعة إلى غرفة أمها، فوجدتها مغمى عليها، فجَرَت إلى خارج البيت.. إلى الجيران.. فجاؤوا إلى البيت وأحضروا طبيب الوحدة الصحية بالقرية وكشف على ذكية، وطلب منهم أن يحملوها إلى المستشفى الأميري بالمدينة حالًا، إذ إنها على وشك الولادة ويجب أن يسرعوا فورًا، وكانت المستشفى الأميري في المدينة، وكانت تبعد عن القرية أكثر من عشرين كيلو، فجاؤوا بعربية وحملت ذكية ومعها أولادها، فقد رفضت، ركبوا السيارة ومعها أولادها وانتقلت السيارة بهم إلى المستشفى الأميري.

وكانت المستشفى الأميري مبني كبير من عدة طوابق وبه أناس كثيرون وزحمة جدًّا.

دخلت ذكية الاستقبال، كشف عليها طبيب الاستقبال، في الوهلة الأولى أحس أنها في حالة وضع، فدخلت غرفة العمليات.. وكانت عنبة تتابع من خلف الزجاج حيرة الأطباء ومحاولة إسعافها، فوضعت طفلًا جميلًا، ولكنها ماتت بعد الولادة.

نظرت عنبة إلى أمها وهي نائمة ووجها ملفوف بملاية بيضاء، وممرضة تقفل عليها الباب، تقدمت عنبة نحو الباب وفتحت الباب وذهبت ناحية السرير الذي تنام عليه أمها، وشدت الملاية من على وجه أمها، وقالت لها:

عنبة: قومي يا أمي، احنا في انتظارك، احنا من غيرك نعمل إيه؟ أرجوكي قومي يلا، هاه أنا هاخد بإيدك، قومي.. إخواتي واقفين بره مستنينك، يلا قومي، آه مش عاوزة تردي عليَّا؟ طب أنا زعلتك في إيه؟ أنا دايمًا بسمع كلامك وعمري ما رفضت ليكي كلام، أنتي ساكتة ليه؟ قومي..

كانت عنبة تتكلم مع أمها التي ماتت، وكانت موجودة الست تحية عاملة النظافة في المستشفى الأميري، وكانت تبكي على كلام البنت الصغيرة، وعرفت من خلال الكلام أنها بنت المتوفية.

قامت الست تحية تحاول أن تُخرج عنبة من داخل الغرفة إلا أن عنبة تمسَّكت في أمها وهي نائمة على السرير، وكانت عنبة تبكي بصوت مرتفع أدى إلى تجمع الممرضات والعاملات وكل من كان متواجدًا في الاستقبال.

وبعد محاولات استطاع الممرض والعاملات إخراج عنبة بصعوبة من غرفة الاستقبال، وأخذوا عنبة بعيدًا، والست تحية تبكي وتحضن عنبة والجميع يبكون على منظر عنبة وأمها، ولكن الجميع لا يعرفون القصة، فجاء الدكتور وسأل عن أهل الميتة التي في الاستقبال، ولكن لا يعرفها أحد، فصرَّح بنقلها إلى ثلاجة الموتى حتى يبلِّغ إدارة المستشفى الأميري.

بقية الأولاد تاهوا من الزحمة التي كانت عند المستشفى الأميري، فبعد أن دخلت الأم الاستقبال تركوا الأولاد أمام باب المستشفى الأميري وتاهوا في وسط الزحمة.

كانت الست تحية تقف مع عنبة بشكل كبير، إذ إنها عرفت أن الميتة أمها والبنت صغيرة على الصدمة، فكانت الست تحية تضحك عليها وتقول لها: أمك هتكون كويسة بس اهدي شوية. ووضعتها على سرير فنامت عنبة من شدة التعب، ولكن بعد فترة سمعت الممرضات وهنَّ يقُلنَ: إن البنت دي غلبانة.. أمها ماتت وتحية بتضحك عليها وتقول لها أمك هتكون كويسة.

فنزلت عنبة من على السرير وفتحت الغرفة وجرت في المستشفى الأميري إلى مكان الاستقبال، ولكنها لا تعرف أين المكان، أخذت تجري في وسط الناس حتى تصل إلى مكان سرير أمها، لكنها لم تقدر أن تصل من زحمة الناس.

دخلت الست تحية إلى الغرفة التي كانت عنبة نائمة فيها فلم تجدها، فسألت عنها الممرضات، فقُلْنَ: ماشفناهاش، وأخذنَ جميعًا يبحثن عنها حتى وجودها، فأمسكت بها الست تحية وأخذتها في حضنها، وطبطبت عليها ومشت ناحية الخروج من المستشفى الأميري، لتأخذها إلى بيتها، وفجأة وقعت عنبة مغمى عليها، فحملتها الست تحية وجرت بها إلى غرفة الكشف للدكتور محمد مدير المستشفى ليكشف على عنبة.. وسأل الست تحية عن البنت فحكت له ما حدث، فكان الدكتور الذي صرَّح لأمها بوضعها في ثلاجة الموتى موجودًا فعرفوا أن الميتة أمها، فسألوا عنبة عن أبيها، فجأة وقفت عنبة وصرخت صرخة مدوية وهي تبكي، وتقول: إخواتي إخواتي إخواتي! فاستغرب الجميع.

سألها الدكتور محمد عن سر ما تفعل..

عنبة: إخواتي الصغار.

الدكتور: عندهم إيه؟

عنبة: لا، هما مش تعبانين.

الدكتور: طب بس براحه فيه إيه؟

عنبة: كانوا معايا.

الدكتور: كانوا معاكي فين؟

عنبة: هنا.

الدكتور: هنا في المستشفى؟

عنبة: أيوه.

الست تحية: دول كبار؟

عنبة: إخواتي الصغيرين عمر وعماد.

الدكتور: براحة، أنتي سبتيهم فين؟

عنبة: هنا قدام المستشفى الأميري.

الست تحية: امتى؟

عنبة: لما جابتنا العربية ودخلت أمي المستشفى.

الدكتور نظر إلى الست تحية: امتى الكلام ده؟

الست تحية: من الصبح.

الدكتور: من الصبح؟ احنا العصر دلوقتي.

ورفع الدكتور التليفون واتصل بأمن البوابة يسأل عن طفلين كانا قادمين مع أمهما.

لكن للأسف رد مسؤول الأمن بأنه لا يوجد أطفال عند الباب.

خرجت الست تحية ومعها عنبة من عند الدكتور محمد مدير المستشفى الأميري للبحث عن إخوتها، وكانت عنبة زي المهبولة على إخوتها، فقالت لها الست تحية: هندوَّر عنهم في كل مكان.

وأخذت عنبة ومعها الست تحية وكل من في الاستقبال يبحثون عن الأولاد الصغار، وكانت عنبة تنادي بأعلى صوتها على إخوتها الصغار، كل واحد باسمه، والباقون يرددون الهتافات أيضًا كل واحد باسمه، حتى ذهبوا إلى باب المستشفى الأميري ووقفوا يسألون الأمن، فقال واحد من أفراد الأمن بأنه لم يلاحظ أولادًا صغارًا أمام الباب.

رجعوا جميعًا إلى داخل المستشفى يبحثون داخلها ساعات كثيرة دون جدوى.

قامت الست تحية بحمل عنبة بسرعة داخل حجرة الاستقبال بعد أن أغمي عليها ووقعت على الأرض، وجَرَت ممرضه إلى غرفة الأطباء لإحضار طبيب حتى يسعف عنبة.

جاء الطبيب المختص لفحص عنبة وأعطاها حقنة، فنامت نومًا عميقًا وجلست الست تحية بجوار عنبة حتى تفيق.

ذهبت الست تحية إلى منصور بواب المستشفى الأميري وسألته:

الست تحية: أخبارك إيه يا منصور؟

منصور: الست تحية.. عال العال.

الست تحية: يعني أنت كويس؟

منصور: جدًّا.. كويس جدًّا. (ونظر إليها نظرات تعجب) هو فيه حاجة يا ست تحية؟

الست تحية: أنت عارف فيه إيه يا سي منصور.

منصور: اللهم اجعله خير، طالما قلتي يا سي منصور يبقى فيه حاجة.

الست: قول حاجات، وأنت عارف وفاهم.

منصور: واللهِ ما فاهم حاجة.

الست: أنت شفت البنت الصغيرة المسكينة اللي كانت معايا وبتدور على إخواتها الصغار؟

منصور: بت وإخواتها الصغار؟

الست: استعبط يا واد استعبط، منصور يا ابن لواحظ.

منصور: وطي صوتك يا خالتي هي لواحظ دي مش تبقى أختك.

الست: أيوه ومش ناسية، بس ابنها لسه فيه الداء الوسخ.

منصور: يا خالتي أنا تبت وخلاص الحمد لله وماشي كويس بعد ما جبتي لي الشغلانة دي، ومن يومها وأنا بشتغل بما يرضي الله.

الست: بما يرضي الله يا فحل يا واطي؟ فين الأولاد الصغار؟ انطق ولا أبلغ عنك!

منصور: أنا عمري ما شفت خالة تتهم وعاوزة تبلغ عن ابن أختها.

الست: لما يكون حرامي..

قاطعها..

منصور: خلاص أنا تبت واللهِ، وكمان ما صدقت ولقيت شغلانة حلوة وبسترزق منها وعايش أني وزوجتي وأولادي، وكمان أمي اللي هي أختك ولا نسيتي؟ (وأخذ يبكي بكاء الماكر ويضع أصابعه على عينيه وينظر إلى خالته بمكر) ليه يا رب كده؟ أمي الثانية اللي هي خالتي المفروض تكون أمي تشك فيا!

الست: أشك فيك إيه يا ولا؟ وبعدين ليه بتقول كده؟ اه توقعي سليم، فين العيال الصغيرة يا منصور؟ واوعى تحلف كذب!

منصور: أنتي تقصدي العيال الصغيرين؟

الست: أيوه يا فالح.

منصور: ما أعرفشي راحوا فين، أنا كنت واقف بعيد عن الباب لأن اليوم كانت المستشفى زحمة وناس كتير دخلين وناس خارجين، وأمن المستشفى كان واقف يبعد الناس عن البوابة وأنتي عارفة التعليمات، الأمن مسؤول عن البوابة طول النهار وهما اللي بيدخلوا الناس وهما اللي بيراقبوا الداخلين والخارجين، أنا بقى هشوف مين اللي واقف واللي قاعد؟

الست هجمت على رقبته وشدته من لياقة القميص: أنت يا واد يا نصاب مش لسه بتقول طفلين عيال صغيرين؟ يعني أنت شفتهم...

قاطعها..

منصور: مممم مش أنتي اللي لسه قايلة اتنين عيال؟ حتى بالأمارة قلتي أختهم المسكينة و...

ونظر نظرات لؤم..

الست: يا واد كفاية لف ودوان عليَّا حرام عليك.

منصور: طب أنتي عاوزة مني إيه بس قولي؟

الست: العيال راحوا فين؟

منصور: مممم أصصصصصل..

الست: يعني أروح أقول للدكتور محمد؟

منصور: لا لا بلاش أرجوكي يا خالتي، أنا شفت واد ماشي ناحية الشارع مع راجل الظاهر كده معلم خضار.. وواد تاني ركب حنطور ده كل اللي أني شفته واللهِ يا خالتي.

الست: خاليت ما بقيت.. اوعى من وشي يا نصاب يا حرامي.

منصور: الله يسامحك يا ست تحية.. هههههههههههه.

رجعت الست تحية إلى غرفة الاستقبال التي تنام فيها عنبة، جلست بجوارها حتى تفيق من الحقنة المهدئة.

جرى منصور إلى الدكتور محمد لكي يبلغه ما دار بينه وبين الست تحية.. دق على باب مدير المستشفى..

الدكتور محمد مدير المستشفى: ادخل.

منصور: السلام عليكم يا دكتور.

المدير: أهلًا، إيه اللي خلاك تسيب البوابة وتيجي هنا؟ إيه أنت موظف مهمل أنا لازم أحوالك للتحقيق.

وهمَّ إلى رفع سماعة التليفون، ولكن جرى منصور إلى التليفون ومسكه من يد المدير.

المدير: سيب التليفون يا واد وارجع ورا.

منصور: استنى يا دكتور أنا كنت عاوز أبلغك حاجة مهمة.

المدير: مهما يحصل ما تسيبش البوابة وتيجي لحد عندي، أنت سامع؟ يلا امشي على البوابة.

همَّ منصور بالخروج، لكن عندما ذهب إلى الباب نادى عليه المدير: تعالى أنت كنت عاوز إيه؟

منصور: خالتي تحية.

المدير: أنت إيه غبي؟ أنا مش منبه عليك أنك ما تقلش خالتي؟ أنت إيه؟ غبي وكمان حمار؟

منصور: اممم أيوه أصل الموضوع اللي أني جاي أقولك عليه مهم خالص.

المدير: قول أنت جاي ليه؟

منصور: خالتي.. أقصد الست تحية كانت بتسألني عن العيال.

المدير: عيال مين؟ أتكلم.

منصور: العيال.

المدير: عيال مين؟ وأنا مالي أنت جاي تقول لي الكلام ده؟

منصور: مممم أصصصصصل أنا هقول أهوه.

المدير: فيه إيه خلصني وانطق.

منصور: الدكتورة إيمان بنت حضرتك.

المدير: مالها؟

منصور: أخذت الرضيع أخو البت والعيال وراحت بيه للسيارة ومشيت وقالت لي: اوعى تقول لحد أني أخذت المولود.

المدير: يا دي المصيبة، وامتى حصل ده يا غبي؟

منصور: مممم من الصبح.

المدير: طيب اسمع يا منصور يا حبيبي.

منصور في صوت ضعيف: هو دلوقتي بيقول يا حبيبي.

المدير: اوعي تقول لحد لما أشوف هنعمل إيه.

خرج منصور من مكتب الدكتور مدير المستشفى وذهب ناحية البوابة ووقف ينظر إلى الشارع المزدحم بالناس، وابتسم ابتسامة صفراء وهزَّ رأسه بمكر وقال: فعلًا أنا واد ذكي، والخطة نجحت ومحدش يعرف سر الثلاث أولاد إلا أنا، يعني أنت يا واد يا منصور معاك كنز أو بنك هتفضل تصرف منه كل شهر، يا سعدك يا منصور.

الست تحية ما زالت تجلس بجوار سرير عنبة حتى تفيق من النوم، وهي تكلم نفسها: أنا شاكة في الواد منصور ابن أختي، أكيد هو عارف الحقيقة.. بس أعمل إيه؟ هشوف لما أروَّح أروح له البيت وأحاول أعرف منه الحقيقة.

سألها الدكتور محمد عن سر ما تفعل..

عنبة: إخواتي الصغار.

الدكتور: عندهم إيه؟

عنبة: لا، هما مش تعبانين.

الدكتور: طب بس براحه فيه إيه؟

عنبة: كانوا معايا.

الدكتور: كانوا معاكي فين؟

عنبة: هنا.

الدكتور: هنا في المستشفى؟

عنبة: أيوه.

الست تحية: دول كبار؟

عنبة: إخواتي الصغيرين عمر وعماد.

الدكتور: براحة، أنتي سبتيهم فين؟

عنبة: هنا قدام المستشفى الأميري.

الست تحية: امتى؟

عنبة: لما جابتنا العربية ودخلت أمي المستشفى.

الدكتور نظر إلى الست تحية: امتى الكلام ده؟

الست تحية: من الصبح.

الدكتور: من الصبح؟ احنا العصر دلوقتي.

ورفع الدكتور التليفون واتصل بأمن البوابة يسأل عن طفلين كانا قادمين مع أمهما.

الفصل الثاني أشجار بلا جذور

سعيد أخذ يلف ويدور مع شربات في البلاد مع فرقتها ونسي أولاده وزوجته..

استطاعت شربات أن تجذب سعيد إليها ويتعلق بها.

جاء زقزوق مسرعًا إلى سعيد وقال له:

زقزوق: اِلحق أبلتي شربات عوزاك.

سعيد: إيه يا زقزوق؟ أنت شايفني نايم! دي طريقه تصحي حد فيها؟

زقزوق: لا بقولك إيه، لما أبلتي شربات تقول هات حد لازم أجيبه على طول..

ووضع يده على رقبته وهو يتكلم؛ إذ كانت شربات تضربه على رقبته لو تأخر.

سعيد: طب هي عاوزة إيه دلوقتي؟ اسمع يا زقزوق روح قلها لقيته نايم، ولا أقولك قولها ملقتوش.

زقزوق: لا يا حبيبي أنا ما أقدرشي أقول كده، أنت ما تعرفشي إيدها زي الكرباج على القفا ازاي.

سعيد: (ضحك ضحكة كبيرة) أنت خايف منها؟

زقزوق: أيوه.

سعيد: ماشي اسبقني وأنا جاي وراك.

زقزوق: لا رجلي على رجلك.

دخل سعيد على شربات التي كانت تجلس على الكرسي بكل كبرياء أنثى، وكان معها العملاق يجلس على الأرض ووجهه ناحيتها، وكانوا يتكلمون بصوت منخفض، هذا ما أدى إلى غيظ سعيد ودبَّت الغيرة في قلبه من وجود العملاق، وأيضًا يجلس بالقرب من شربات.

لاحظت شربات غيرة سعيد فابتسمت ابتسامة كبرياء وعزة، وأكملت الحوار مع العملاق دون النظر إلى وجود سعيد.

همَّ سعيد بالخروج، ولكن العملاق وقف وأمسكه من يده وأخذه وخرجا، وجاء زقزوق إلى أبلته شربات.

زقزوق: ليه كده يا أبلتي؟

شربات: وهو فيه إيه يا واد يا منيِّل؟

زقزوق: أنتي عارفة ليه كده.

شربات: تقصد العملاق؟

زقزوق: أيوه الله ينور عليكي.

شربات: بكره تفهم ليه كده.

زقزوق: وبكره ليه؟ ما تقولي وأنا كلي أذن صاغية وسرك في بير يا أبلتي

شربات: اسمع يا زقزوق، أنا عاوزة أتجوز سعيد بس هو حمار ومش عاوز يعرف، طب أعمل إيه؟

زقزوق: تقومي تدخلي العملاق في حاجة زي دي؟

شربات: لا أنا بعت للعملاق في موضوع تاني.

زقزوق: موضوع تاني؟ خير يا أبلتي!

شربات: أنت عارف إن العملاق شريكي في كل حاجة.

زقزوق: أيوه أيام ما كان..

صرخت شربات في زقزوق:

شربات: اخرس يا واد يا أهبل، أنت عارف إن السيرة دي بتعصبني.

زقزوق: أنا آسف يا أبلتي.

شربات: أيوه العملاق كان زوجي أنا مش ناسية بس خلاص هو عجوز ما بقاش ينفع دلوقتي.

زقزوق: وسعيد يا أبلتي؟

شربات: ماله سعيد؟

زقزوق: لو عرف موضوع زواجك من العملاق مش لازم نقول له الحقيقة.

شربات: طبعًا ده اللي خلاني أبعت له وأتفاهم معاه.

زقزوق: تتفاهمي معاه؟ أنا مش فاهم حاجة.

شربات: علشان أنت غبي.

زقزوق: أنا غبي وأهبل ومش عارف أفكر، أنا سايب عقلي معاكي من زمان يا أبلتي.

وكان ينظر إليها بحزن وكره وغضب، وقال في نفسه: أنا طول عمري بحبك لكن دايمًا مش بتشوفيني وأنا في نظرك خدام. ونزلت الدموع من عينيه ولف بوجهه بعيدًا عنها حتى لا ترى دموعه.

شربات: عارف يا زقزوق أنا أول ما شفت سعيد خد قلبي معاه أصل الواد حلو وراجل.

زقزوق وهو يبكي: أيوه يا أبلتي الواد يتحب وخصوصًا لما ضرب العملاق.

شربات: هش هو ده السبب برده، لكن الواد له طلة قمر.

زقزوق وهو يجز على أسنانه: صح، كلامك صحيح.

شربات: آه اجري يا زقزوق روح وراهم شوفهم بيعملوا إيه.

زقزوق: حمامة يا أبلتي.

خرج زقزوق وراء سعيد والعملاق وهما يمشيان ناحية القهوة، وجلس سعيد على أقرب ترابيزة لكن العملاق همس في أذن سعيد فوقف سعيد ومشى وراء العملاق حتى جلس على ترابيزة بعيدة عن الناس، وأخذ يمسك بيد سعيد وهو يقول له:

العملاق: أنا عاوز أقول لك سر.

سعيد في نفسه: سر؟ اللهم اجعله خير.

العملاق: سر خطير وأنا خلاص زي ما أنت شايف، العضمة كبرت والظاهر إني بشطب.

سعيد: ليه كده؟ أنت زي الفل.

العملاق: أنت واد جدع علشان كده أنا عاوز أعرفك على حاجة تعباني وعاوز أتخلص منها.

سعيد: سرك في بير.

العملاق: لا، أوعى تسيبه في البير، لازم يظهر للنور ويطلع فوق السطح.

سعيد: بشوقك وراحتك.

العمـلاق أخـذ يلتفـت يمينًـا ويسـارًا وإلـى الجالسـين علـى القهـوة، واقترب من سعيد ونظر في عيونه: اسمع يا سعيد المعلمة شربات دي تبقى مراتي.

سعيد: مراتك ازاي؟

العملاق: أقصد كانت مراتي.

سعيد وهو ينظر بدهشة وتعجب: شربات إلا..

قاطعه العملاق:

العملاق: أيوه.

سعيد: بس أنا شايف كده وو..

العملاق: ركز معايا.

سعيد: بحاول.

العملاق: أيوه حاول تركز علشان فيه مفاجأة كبيرة عاوزك تعرفها.

سعيد: طـب حملـك شـوية، مـش لمـا أفـوق مـن مفاجـأة شـربات أكـون جاهز للمفاجآت تاني.

العملاق: كله واحد، كله من شربات.

سعيد: مالها شربات؟

العملاق: أنا هاحكيلك..

أنا كنت أعمل سائقًا خاصًّا عند الخواجة بولي.. كنت ذراعه اليمين معه في كل مكان، هو كان حرامي وأنا كنت بساعده في كل حاجة.

نسيت أعرفك ببولي.. هو خواجة يوناني جه مصر هربان من الحرب في اليونان، وعلشان هو أجنبي وخواجة الإنجليز ساعدوه في النصب على الفلاحين واشترى أراضيهم بالنصب والحيل، وعلشان الفلاحين كانوا غلابة استطاع أن يحقق ثروة طائلة، كان صاحب عزبة واسعة والفلاحين أصحاب الأرض كانوا بيشتغلوا عنده هم وأولادهم، يعني بعد ما كانوا أصحاب الأرض أصبحوا عمال في الأرض.

كنت أنا ابن واحد من الفلاحين دول، وكنت قوي وشديد البنيان فعرض الخواجة بولي على أبويا أكون معاه مقابل مرتب كل شهر، ففرح أبويا ووافق وذهبت إلى سرايا الخواجة وعشت معه ومع زوجته وأولاده حنا وفيكتوريا كانوا أطفال صغار.

كان الخواجة يسرق الفلاحين والعمال الذين كانوا يعملون في الأرض وكنت أشاهد كل هذا بنفسي. وكنت أعرف مكان الخزينة الخاصة بالخواجة وعندما قامت الثورة وجاء عبد الناصر والضباط الأحرار خاف الخواجة على أولاده وزوجته فذهب بهم إلى الإسكندرية لكي يحجز لزوجته وأولاده ليسافروا إلى اليونان.

غاب الخواجة عدة أيام ثم شهور وأنا أقوم بنفس أعمال الخواجة إلا في يوم جاء ضباط وأمموا أملاك الخواجة، وأنا كنت أعرف أين مكان الخزينة الخاصة بالخواجة.

أخدتها وذهبت بها إلى المدينة واستأجرت منزلنا ووضعت الخزينة فيه، وكل ليلة أكسر فيها شوية حتى كسرتها، ووجدت فيها فلوس كتير ومجوهرات وعرفت بعد ذلك أن الخواجة سافر مع زوجته وأولاده هربًا من جمال عبد الناصر والضباط الأحرار.

اشتريت منزلًا كبيرًا، وذات ليلة عرفت أن فرقة من الغجر نازلين في المدينة في زفة المولد للشيخ التابعي، ذهبت إلى المولد لكي أتفرج على فرقة الغجر ويا رتني ما ذهبت.

المهم قطعت تذكرة وجلست في المقعد الأول، جاءت الراقصة شربات صاحبة الصولجان والصيت العالي بالمنطقة وشدتني إليها، وقعت في غرامها مقدرتش أسيطر على حبها في قلبي، تركت الدنيا وأخذت ألف وأدور وراءها في كل مكان، وأنفق عليها وعلى الفرقة حتى وصلت إلى قلب شربات، وفعلًا تزوجت شربات بعد أن أصبحت أنا صاحب فرقة الغجر.

وذات مرة كانت الفرقة تحيي حفلات في مولد سيدنا أبو مسلم في قرية صغيرة، وكان للقرية عمدة شديد الكل يخاف منه ويحترمه، ليس احترامًا عن حب وإقناع، ولكن رعب من الظلم الذي يتعرضون له، وبعد أن انتهينا من حفلة الليلة جاء غفير العمدة رشوان يطلب مقابلة شربات، فقلت للغفير:

العملاق: أنت عاوز شربات في إيه؟

الغفير: حضرة العمدة رشوان هو اللي عاوزها.

العملاق: وعاوزها في إيه؟

الغفير: أنت مالك؟ أنت بتسأل ليه؟ أنت بهلوان حِشري أوي.

العملاق: اللهم طوِّلك يا روح.

الغفير: أنت مش عاجبك؟

العملاق: لا مش عاجبني.

الغفير: واللهِ اللي اختشوا ماتوا، شوف يا أخويا حتت بهلوان في فرقة الغجر بيسأل.

العملاق: فيه حاجه تانية يا غفير؟

الغفير: أنت بتقول لي يا غفير مع أني على وش ترقية.

العملاق: على وش ترقية؟

الغفير وهو يترنح ويتقصع: أيوه ترقية.

العملاق: يعني الغفير لما يترقى يكون لواء؟ هههههههههههه.

الغفير: أما أنت بهلوان قليل الأدب.

ورفع عصاه لكي يضرب بها العملاق، فشد العملاق العصا من يد الغفير وضربه، فوقع الغفير على الأرض، فأسرعت شربات وأمسكت العملاق وجاءت الفرقة أوقفوا الغفير من على الأرض الذي نفض هدومه بعد أن وقف على رجليه وقال:

الغفير: طب أنا شوف راح أعمل فيكم إيه.

واحد من الفرقة: أنت لسه فيك حيل الكلام مش كفاية ولا؟

الغفير: ولا إيه بالضبط؟ أنا رايح لجناب العمدة وراح أقول له هه هه هه ولازم يأخذ حقي.

العملاق: وعاوزك توصل له رسالة.

الغفير: رسالة إيه؟

العملاق رفع يده وضرب الغفير ضربة أوقعته على الأرض.. أخذ الغفير يزحف حتى بعد عن العملاق ونهض وتمتم بكلام غير مسموع وجرى خارج المكان.

شربات: إيه اللي أنت عملته ده؟

العملاق: ده أبسط حاجة عملتها لما أسمع أن العمدة عاوزك تروحيله الدوار، عاوزاني إيه؟ خرنج؟

نفر من الفرقة: بس ده العمدة رشوان.

العملاق التفت ناحية هذا النفر وأمسكه من كتفه مسكه قوية جعلت النفر ينزل وينزل إلى الأرض حتى سجد على ركبتيه، وقال بصوت مخنوق من شدة المسكة: لا أنا أقصد إن العمدة رشوان راجل ظالم.

شربات جاءت إلى العملاق وهي غضبانة وقالت له: سيبه هو مغلطش، هو بيحاول يفهمك مين العمدة رشوان.

العملاق نظر إلى الفرقة وهو رافع رأسه إلى فوق: إذا كان هو العمدة رشوان فأنا..

صفق كل الموجودين له وقبل أن ينتهي التصفيق جاء الغفير ومعه مجموعة من الغفر ومعهم شيخ الغفر، ووقفوا ينظرون إلى الموجودين وتوجه الغفير ناحية العملاق وقال: هو ده اللي ضربني وقال وصلها للعمدة.

شيخ الغفر اتجه ناحية العملاق وقال: أنت اللي عملت كده؟

العملاق: أيوه أنا، وأنت مين؟

شيخ الغفر: أنا شيخ الغفر.

العملاق: أهلًا وسهلًا.

الغفير: يعني دلوقتي أهلًا وسهلًا ومن شوية كنت عامل فيها دكر؟

العملاق رفع يده وضرب الغفير ضربة أوقعته على الأرض، فأسرع شيخ الغفر يبتعد عن العملاق ووقف وراء الغفر، وقال: اللي أنت عملته ده يعاقب عليه القانون، ضرب غفير أثناء تأدية خدمته.

وذهب ووراءه الغفر وترك الغفير مرميًّا على الأرض وذهبوا إلى العمدة رشوان، الذي غضب غضبًا شديدًا فرفع سماعه التليفون وطلب المأمور وأخبره بأن هناك بلطجي هجم على الغفر وضربهم، فما كان من المأمور إلا أنه أرسل قوة وقبضوا على العملاق وذهبوا به إلى المركز، والمأمور مع العمدة عملوا محضرًا بالواقعة وتم تحويله إلى النيابة ومنها إلى المحكمة التي حكمت على العملاق بخمسة أعوام.

دخل العملاق السجن، وزارته شربات مرة لتخبره بأنها حامل، ولم تزره مرة أخرى خوفًا من العمدة رشوان الذي أرسل إلى شربات، ولكن شربات اتفقت مع أعضاء الفرقة للهروب من القرية ليلًا، وفعلًا قاموا بالتجهيز لكي يهربوا ليلًا من العمدة، لكن العمدة رشوان كان عامل حسابه، نادى على شيخ الغفر وقال له:

العمدة: راقب الغجر حتى لا يستطيع أي نفر منهم الهروب، وكمان حط غفير على شربات يراقب كل تحركاتها، وهات الواد صبي العالمة لي عشان أعرف منه هي بتفكر في إيه.

شيخ الغفر: حاضر يا جناب العمدة.

وذهب شيخ الغفر إلى الغجر ومعه عدد من الغفر، ووزع الغفر على الطريق لكي يتم مراقبة الغجر، وذهب شيخ الغفر إلى خيمة شربات وقبض على صبي العالمة وذهب به إلى العمدة.

العمدة: أهلًا بصبي العالمة.

زقزوق الصبي: أهلًا وسهلًا يا حضرة العمدة.

العمدة ذهب ناحية صبي العالمة، وأمسكه من كتفة مسكة قوية أدت إلى أن وقع صبي العالمة على الأرض من شدة مسكة العمدة.

وقال له: اسمع يلا لو مقلتش الحقيقة هابعتك مشوار عند العملاق.

زقزوق الصبي: السجن ليه؟ أنا عملت إيه؟

العمدة: شوف أنت عملت إيه.

زقزوق الصبي: واللهِ أنا ما عملت حاجة.

العمدة: مصمم على الإنكار، خلاص.. يا شيخ الغفر (بأعلى صوته) يا شيخ الغفر!

شيخ الغفر: نعم يا حضرة العمدة.

العمدة: ده مش عاوز يعترف.

شيخ الغفر اتجه ناحية الصبي وضربه بالعصا، لكن العمدة قال له:

العمدة: لا يا شيخ الغفر احنا لازم نعامله كويس وهو هيعترف.

وغمز لشيخ الغفر فبعد عن الصبي، وقال:

شيخ الغفر: هو راح يتعبنا خالص.

العمدة: لا هو طيب وأمير وهيتكلم ونشوف ازاي نعرف نساعده.

زقزوق الصبي نزل إلى يد العمدة وأخذ يقبل فيها ويترجاه ألَّا يذهب به إلى السجن.

العمدة: أنا مش عاوز أوديك السجن بس أنت اللي منشف دماغك.

شيخ الغفر: انطق يا ابن ال...

ورفع يده ليضربه، لكن أسرع العمدة وأمسك يده وقال:

العمدة: لا يا شيخ الغفر احنا قلنا إيه؟ بلاش ضرب، ده برضه ضيف عندنا.

شيخ الغفر: خلاص يعترف من سكات.

زقزوق الصبي: اعترف بإيه يا ناس؟

شيخ الغفر: يا جناب العمدة ده واد صبي عالمة ومش هنقدر عليه، سيبني وأنا أنزع منه اعتراف.

العمدة: لا يا شيخ الغفر احنا هنا علشان الحقيقة.

زقزوق الصبي: وهو فيه يا جناب العمدة؟

شيخ الغفر: شوفوا يا ولاد بيعمل الجريمة وبيسأل فيه إيه؟ يا جناب العمدة ده واد ملاوع.

العمدة: فعلًا كلامك صحيح، خده يا شيخ الغفر ومعاه الشهود واطلع على المركز وسلمه للمأمور وهو يتصرف.

جرى الصبي على العمدة وركع على الأرض وقبل رجل العمدة، وقال:

العمدة: خلاص يا حضرة العمدة شوف اعتراف إيه وأنا أعترف به.

العمدة: لا أنت كده تقصد أننا عاوزين نلفق لك تهمة، لا يا واد يا صبي العالمة، أنا هنا الأمن والاستقرار، أنا بحافظ على القرية من أمثالك الحرامية والمجرمين، أنا بخاف من الظلم. (ونظر إلى شيخ الغفر) ولا إيه يا شيخ الغفر؟

شيخ الغفر: أنت النظام هنا وكلنا بنطبق النظام.

زقزوق الصبي: هو فيه إيه بالضبط؟ وأنا عملت إيه؟ أيوه أنا اللي قتلت.. أيوه أنا شلته ورميته في المصرف، لا بالحق قبل ما أرميه في المصرف ضربته بالسكينة في رجله، أصله كان طويل وزي ما أنت شايف أنا قصير فلما معرفتش أضربه في بطنه ضربته في رجله، هي اللي قدرت أطوله فيها، آه وبعد ما ضربته في رجله وقع على الأرض قمت هاجم على رقبته وخنقته لغاية ما مات.

العمدة وشيخ الغفر نظرا إلى الصبي وهو يتكلم ويعترف بجريمة قتل وهما مستغربان، فقال له العمدة:

العمدة: وأنت بعد ما قتلته رميته فين بالضبط؟

زقزوق الصبي: في الترعة.

العمدة: أنهي ترعة؟

زقزوق الصبي: اللي عند الساقية.

العمدة: أنهي ساقية بالضبط؟

زقزوق الصبي: اللي على الترعة.

العمدة رفع يده وضربه على وجهه ضربة أوقعته على الأرض: أنت هتلاعبتي حوريني يا تيتة؟

زقزوق الصبي: مش أنت عاوزني أتكلم، ما أنا بتكلم أهو!

العمدة: بتتكلم إيه يا ولا، أنت عمال تلف وتدور.

زقزوق الصبي: أنا افتكرت.. أنا لما قتلت الواد رميته في الطريق.

شيخ الغفر: هو واد ولا راجل طويل؟

زقزوق الصبي: هو أنا قلت راجل طويل؟

العمدة: وحياة أمك خده يا شيخ الغفر خده على المركز...

زقزوق الصبي: لا هي كانت بنت.

شيخ الغفر: بنت؟ الواد ده بيقول إيه يا حضرة العمدة؟

العمدة أمسك الصبي وجذبه ناحيته وقال: أنت إيه يا واد بالضبط؟

زقزوق الصبي وهو يرتجف من الخوف: أنا صبي عالمة مليش دعوة بحاجة، وكمان عاوز أقولك شوف جنابك عاوز إيه وأنا أعمله.

العمدة نظر إليه وقال: لا لا أنت ما تنفعشي، لا يا شيخ الغفر، هو ينفع؟

شيخ الغفر: شكله كده ما ينفعشي.

زقزوق الصبي: لا أنا أنفع، بس جربني.

العمدة: ممكن ينفع؟ لا لا، أنت ما تنفعشي خالص، خده يا شيخ الغفر.

شيخ الغفر: طب جربه يا عمدة.

العمدة: أنت شايف كده يا شيخ الغفر؟

شيخ الغفر: نحاول يا حضرة العمدة.

العمدة: طب مين اللي يضمنه؟

زقزوق الصبي: شيخ الغفر هو اللي يضمني.

شيخ الغفر: بس أنا ما أعرفشي وخايف أضمنك تقصَّر رقبتي.

الصبي: لا جربني واضمنِّي عند العمدة.

العمدة: هيه هيه هتضمنه ولا تاخذه تسلمه للمأمور.

شيخ الغفر وهو ينظر إلى الصبي: لا يا جناب العمدة أنا هضمنه لما أشوف أخرتها.

العمدة أمسك الصبي وقال له: أنا هكلفك بشغلانة كده وهجربك يا تكون قدها يا تتسلم للمأمور.

الصبي: كلفني وشوف أنا قدها وقدود.

العمدة: أنا عاوز شربات.

الصبي: عاوزها فين؟

العمدة: واللهِ؟ عاوزها هنا في الدوار.

الصبي: أنت عاوزها بجد يا عمدة؟

العمدة: لا أنا بهزر يا ابن ال...

الصبي: بس ما تبقاش حمقي وخلقك ضيق.

العمدة: اخلص.

الصبي: أنت تقول لها أنا عاوز أتجوزك.

العمدة: اتجوز مين يا ابن ال...؟ أنت مجنون يا واد يا عبيط.

شيخ الغفر: اطلع بره، اطلع بره، يخرب بيت اللي جابوك.

العمدة أمسك الصبي وقال: يطلع بره فين ابن ال... ده؟

شيخ الغفر: سيبه يا عمدة وأنا خطر في بالي فكرة حلوة.

العمدة: فكرة إيه أنت كمان؟

شيخ الغفر: سيبه (ونادى على غفير) خد صبي العالمة وخليه معاك بره وخد بالك منه إوعى يهرب منك.

الغفير هز رأسه بالموافقة.

العمدة: عارف يا غفير الغبرة أنت، لو هرب منك هدخلك السجن مكانه.

صبي العالمة: لا أنا مش ههرب أنا مستني برا (ونظر إلى شيخ الغفر) أنا واحد ضمني شيخ الغفر يبقى لازم أرفع راسه لفوق.

رفع شيخ الغفر رأسه بشموخ وعزة وسرور وقال للغفير: خده بره شوية.

خرج الغفير ومعه صبي العالمة إلى خارج المندرة.

مال شيخ الغفر ناحية العمدة وقال له: فكرة يا عمدة لو حصلت أقدر أقول لك إن المشاكل كلها اتحلت.

العمدة: ازاي يا شيخ الغفر؟

شيخ الغفر: أنت مش عاوز ولد يورث العُمدية والمرحومة الحاجة وردة ماتت وما عرفتشي تجيب الولد.

العمدة: الله يرحمها كانت ست ولا كل الستات وربنا جابلي منها بنتين واتجوزوا وأنا عايش لوحدي، وهو اخلص أنت عاوز تقول إيه؟

شيخ الغفر: اتجوزوا وتركوك لوحدك لا مرا تسليك ولا عيل يأخذ حسك.

العمدة: أيوه كلامك صح بس.. أنت قاعد ترغي معايا وبردك ما قلتش إيه الفكرة؟

شيخ الغفر: اصبر شوية ما أنا جاي لك في الكلام أهوه.

العمدة: اللهم طولك يا روح.

شيخ الغفر: البت الغازية حلوة وصغيرة وو...

العمدة: هيه وبعدين؟

شيخ الغفر: اصبر شوية أنا بدور على مصلحتك.

العمدة: كمل يا أخويا لما أشوف مصلحتي دي فين.

شيخ الغفر: الغازية غريبة وملهاش حد يسأل عليها.

العمدة: هيه وبعدين؟

شيخ الغفر: واحنا عاوزين عمدة صغير.

العمدة: والغازية مالها ومال العمدة الصغير؟

وسكت العمدة ونظر إلى شيخ الغفر وابتسم ورفع حاجب واتسعت عيناه وظهر لمعان العين، وتوجه ناحية شيخ الغفر وبصوت منخفض جدًّا وقال لشيخ الغفر: هيه وبعدين؟

شيخ الغفر: الغازية تجيب العمدة الصغير وقدامها حل من الاتنين، يا تروح بعيد وتسيب العمدة الصغير لنا، يا طلقة غلط تموت فيها ويبقى جبنا العمدة الصغير من الغازية وبعدنا عن أهل البلد، ويعيش العمدة الصغير ملوش حد في البلد يتحكم فيه ويعاكسه.

العمدة: يخرب عقلك يا شيخ الغفر، أنت عليك شوية أفكار إبليس نفسه ما يعرفشي يفكر كده.. أنت بتجيب الأفكار دي منين؟

شيخ الغفر: بلين ومكر كلنا رجالتك.

العمدة: طب وبعدين نتصرف ازاي؟

شيخ الغفر: الواد اللي بره ده هو الخطة.

العمدة: أنت اتهبلت؟

وقبل أن يكمل، قاطعه شيخ الغفر..

شيخ الغفر: ده واد غلبان زي أبلته الغازية.. يعني ما فيش منه خوف، وبعدين يغرق في الرشاح وندور على أهله محدش يعرفه ولا يسأل عليه، والعمدة أبو قلب أبيض وافق أنه يدفنه في مقابر العيلة.

العمدة: أنت أكيد أستاذ إبليس.

شيخ الغفر: بييجي ياخد درس خصوصي.

وضحك العمدة وشيخ الغفر وقام العمدة من مكانه وذهب إلى خارج المندرة، وجاء ومعه صبي العالمة زقزوق، كان زقزوق مستغربًا من الموقف حيث إن العمدة يضع يده على كتف زقزوق ويتكلم معه بلطف وحنية.

حتى خرج العملاق من السجن وأخذ يلف ويدور على الفرقة وشربات حتى عرف طريقهم، فذهب إليهم وقابل شربات وحكت له سبب عدم زيارته، وكيف أنها تعبت كثير من الحمل والولادة وخافت على بنتهم من العمدة رشوان لو عرف أنها تزوره في السجن، ولذلك ذهبت بعيدًا عن أي مكان يقدر يصل إليها العمدة رشوان.

سعيد: ياه كل ده حصلك؟

العملاق: نعم، ومع ذلك لسه عايش.

سعيد: وبنتك فين؟

العملاق: تصدقني لو قلت لك لغاية دلوقتي مش عارف هيه فين.

سعيد: ليه هي مش مع أمها؟ بس أنا ما شفتش بنات مع شربات.

العملاق: ولا هتشوف، هي مخبياها عني بس أنا وراها لما أعرف بنتي فين.

كانت شربات تخبئ بنتها عند أختها لوزة في مصر بعيدًا عن المشاكل، وكانت ترسل لها نقودًا وعكفت لوزة على تربية بنت أختها.

تزوج العمدة من شربات وعاشت معه في شقة في المدينة بعيدًا عن العملاق وعن أي أحد يعرفها، وأخذت معها الصبي زقزوق وكان العمدة يذهب إليها كل فترة.

***

رجع منصور إلى بيته وهو سعيد بما صنعه، لقد استطاع أن يحقق لنفسه فرصة ذهبية بعد أن وزَّع الأولاد الثلاثة على أشخاص ليكونوا منجم ذهب له، فالأول أخذه المعلم حندوقة الفحل، هو رجل أعمال لا أحد يعرف ما هي الأعمال التي يقوم بها، لكنه تاجر مخدرات كبير، ولكنه يختبئ وراء كلمة رجل أعمال.

حندوقة الفحل متزوج وله ابن يساعده في أعماله الشيطانية عندما يكبر، وكان في مقتبل العمر، أما زوجة حندوقة وهي زينات هانم كما كانت تطلق على نفسها «زينات هانم» وهي في الأصل ابنة المعلم الورداني صاحب قهوة الورداني، وهي صاحبة فكرة خطف ولد صغير ليقوموا بتربيته وتعليمه حتى يكون سندًا إلى ابنهم حب حندوقة. جاء المعلم ومعه الولد المخطوف ودخل على زوجته وابنه.

زينات هانم: أهلًا يا معلم.

حندوقة: بلاش كلمة يا معلم.

زينات: ليه؟ أنت نسيت نفسك ولا...

حندوقة قاطعها: يا ستي خلاص، أنا دلوقتي بقيت حندوقة بيه رجل الأعمال.

زينات هانم ضحكت ضحكة قوية: بيه؟ طيب يا بيه.

حندوقة أخذ يلف حول المكان وينظر في المرآة التي أمامه: أنا مش بيه، ده أنا بيه وابن بيه.

زينات هانم نامت على الكرسي من الضحك وهي تنظر إلى رجل ضخم وكرشه أمامه وشعره غير مصفف ومناخيره كبيرة ووجهه مليان وكله ملخبط: أنت بيه؟ ماشي تمشي المرادي.

حندوقة نظر إليها: طب أنتي زينات ماشي، المعلمة زينات تمشي، لكن زينات هانم، هي دي اللي ما تنفعشي تمشي.

زينات هانم: حندوقة لم نفسك واتكلم عِدل، أنا طول عمري هانم وأنت عارف كده كويس، ولا تحب أفكرك أنت كنت بتشتغل إيه عند أبويا؟

حندوقة: عارف، كنت بشتغل صبي قهوجي عند المعلم الورداني في قهوة الورداني.

زينات هانم: وأنا كنت فين يا حندوقة؟

حندوقة: كنتي بنت المعلم الورداني القهوجي.

زينات هانم: حندوقة أنت عاوز إيه؟

حندوقة: أنا بس عاوز أعرف..

زينات هانم قاطعت كلامه: أنت عاوز تعرف إيه يا حندوقة؟

حندوقة: لا خلاص يا زينات هانم. (ورجع إلى الخلف وتكلم بصوت هادئ) هي دي هانم؟ لا شكل ولا منظر، الهوانم حاجة تانية بس يلا نعمل إيه.

زينات هانم: أنت بتقول حاجة؟

حندوقة: أنا عاوز أوريكي الواد اللي أنا جبته.

زينات هانم: فين هو؟

حندوقة نادى على عرقوبة ذراعه اليمين..

عرقوبة جاء مسرعًا: نعم يا معلم.

زينات هانم ضحكت ونظرت إلى عرقوبة.

حندوقة ضرب عرقوبة على قفاه: أنت يا ابن ال... أنا أبقى إيه؟

عرقوبة: أنت المع.. أقصد أنت البيه.

حندوقة نظر إلى زينات هانم وابتسم: شفتي أنا البيه. (ونظر إلى عرقوبة) أنا أبقى مين؟

عرقوبة: أنت البيه حندوقة بيه، أبو حب بيه، زوج زينات هانم.

حندوقة: جدع يا واد يا عرقوبة فين الواد اللي أنا جبته؟

عرقوبة: موجود مع أم عرقوبة.

زينات هانم: هاته بسرعة يا واد يا عرقوبة.

عرقوبة: حاضر يا هانم.

زينات هانم: جدع يا واد يا عرقوبة.

عرقوبة نادى على أم عرقوبة: هاتي الواد.

دخلت أم عرقوبة ومعها ولد صغير يلبس بجامة كستور قديمة وشبشب بلاستيك مقطع، نظرت زينات هانم إليه وأعجبت بشكله ووجهه الطفولي الجميل، ومنظر عينيه السوداء اللون، ووجهه الخمري، فأخذته في حضنها وطبطبت عليه وقالت:

زينات هانم: هذا ابني، أحسه كأنه ابني، لقد انشرح صدري وقلبي له من أول ما شفته. (ونظرت إلى زوجها حندوقة بيه) أنت جبته منين؟

حندوقة غمز لها على شفتيه، ونظر إلى عرقوبة وأمه وقال لهم: طب امشوا أنتوا دلوقتي وسيبوا الواد هنا.

خرج عرقوبة وأمه إلى الخارج.

حندوقة بيه نظر إلى زوجته زينات هانم وقال لها: مش تاخذي بالك، هو ينفع تسألي السوال ده؟ أنت جبته منين؟

زينات هانم: أيوه عندك حق أنا مختش بالي.

حندوقة بيه: أنت يا دماغ كبيرة وأفكارك كلها حاجات إيه، حلوة أوي، فعلًا أنتي هانم وست الهوانم.

زينات هانم: علشان تبقى تعرف كويس أنت بتتكلم مع مين وتعرف الهانم بتفكر ازاي.

حندوقة بيه: فعلًا يا ست الهوانم.

زينات هانم: جبته منين؟

حندوقة بيه: فيه واد اسمه منصور قابلته في المستشفى الأميري يوم ما كانت أم عرقوبة بتعمل عملية في عينيها، والحقيقة كان واد جدع وصيته على أم عرقوبة قام معاها بالواجب، ومن يومها وأنا متابعه كويس علشان أنفذ خطتك ولا أنتي نسيتي؟

زينات هانم: أنسى خطة أنا اللي فكرت فيها؟ أنا بخاف على حب ابني وعاوزة واد أربيه وأكبره علشان يكون دراع ابني اليمين، يخاف عليه ويحبه ويحميه، فكان لازم يكون واد صغير أربيه وأعلمه ازاي يحب ابني ويخاف عليه ويكون ولاؤه ليه.

حندوقة بيه: فكرة جهنمية وأنا أحسدك على ذكائك الرهيب.

زينات هانم: وبعدين منصور ده عمل إيه؟

حندوقة بيه: أنا وصيت منصور يجيب ليَّا واد بمواصفات خاصة، يعني ماكنش له أهل ويكون شكله كويس، وفعلًا اتصل بيَّا منصور وقال لي الأمانة موجودة ورحت له وجبت الواد ده.

زينات هانم نظرت إلى الواد وأشفقت على منظره وسألت زوجها حندوقة بيه: بس قصته إيه؟

حندوقة بيه: منصور قال لي إن أمه جات في الإسعاف ومعاها واد تاني وبنت ودخلت غرفة العمليات، ولكنها ماتت بعد ما وضعت طفل صغير ومالهمش حد تاني.

زينات هانم: وأبوهم؟

حندوقة بيه: منصور قال إن أبوهم مات وملهمش حد غير البنت الصغيرة.

زينات هانم: لا حول ولا قوة إلا بالله، يا حرام. (وأخذت الولد في حضنها وطبطبت عليه) الواد ده مسكين بس أنا هخليه سيد الكل.. آه بالحق هو اسمه إيه؟

حندوقة بيه: منصور بيقول اسمه عماد سعيد.

زينات هانم: اسم مش حلو.

حندوقة بيه: أنتي عاوزة تسميه إيه؟

زينات هانم: جابر، أيوه جابر اسم حلو، علشان ربنا ياخذ بجبر ابننا حب.

دخل حب على أبيه وكانت أمه تأخذ الولد الصغير اللي عنده ثلاث سنوات وكان اسمه عماد سعيد، أصبح الآن اسمه جابر عرقوبة.

حندوقة: بتقولي إيه؟ جابر عرقوبة؟

زينات هانم: إيه مش فكرة حلوة، الواد صغير ما يعرفشي حاجة لا عارف اسمه ولا يعرف مين أبوه أو أمه، نكتبه باسم عرقوبة دراعك اليمين.

حندوقة: عرقوبة؟ يعني ما ينفعشي أسميه باسمي؟

زينات هانم قاطعته: اخرس، عاوز يشارك ابني في ورثك بعد ما تموت؟

حندوقة بصوت منخفض: يارب أنتي اللي تموتي.. طب لازم نعرَّف عرقوبة علشان يعرف.

زينات هانم: تعرَّف مين يا راجل يا أهطل؟ احنا نسميه باسمك واسمي ومحدش عارف حاجة.

حندوقة: الله! مش أنتي قلتي بلاش ونسميه باسم عرقوبة.

زينات هانم: لا غلط.

حندوقة بيه: غلط ليه؟

زينات هانم: لو بقى باسم عرقوبة ولاؤه هيكون لعرقوبة مش لينا ولا لابننا حب.

كان حب يسمع هذا الحوار وهو عارف قصة هذا الولد وكيف أنه سوف يكون ذراعه اليمين في المستقبل ويضمن ولاءه.

وعاش عماد سعيد في بيت حندوقة بيه وزوحته زينات هانم وابنهم حب وتعاملوا معه أحسن معاملة وكأنه ابنهما.

دق جرس التليفون وكان المتصل منصور يطمئن على عماد سعيد..

منصور: ألو.

حندوقة: ألو.. مين؟

منصور: أنا يا حندوقة بيه.

حندوقة: أنت مين؟

منصور: أنا منصور بواب المستشفى الأميري.

حندوقة بيه: أيوه أيوه ازيك يا منصور؟

منصور: الحمد لله، أخبار عماد سعيد إيه يا بيه؟

حندوقة: عماد مين يا منصور؟

منصور: الواد الواد يا بيه.

حندوقة: أيوه أيوه تقصد جابر!

منصور: جابر مين؟ أنا بتكلم عن عماد سعيد.

حندوقة ضحك: أيوه احنا غيرنا اسمه وبقى اسمه جابر حندوقة.

منصور: حندوقة؟ اسم أبوه أنت؟

حندوقة: أيوه أنا.

منصور: ماشي حلو، طب أجي امتى؟

حندوقة: تيجي فين؟ وليه؟

منصور: علشان أتطمن على عماد.. آه أقصد جابر.

حندوقة: منصور أنا مش عاوز أشوف وشك.

منصور: بس احنا ما اتفقناش على كده.

حندوقة: أنت مش أخذت حقك! عاوز إيه تاني؟

منصور: أيوه يا بيه بس بنتطمن بس.

حندوقة: لا اتطمن، وبعدين أنا هبقى أشوفك.

منصور: لا أنا مش بقصد أنت خيرك مغرقني.

حندوقة: أنا كنت عاوز أسجل جابر.

منصور: طلبك عندي.

حندوقة بيه: أنت تعرف حد؟

منصور: أيوه يا بيه أعرف واحنا في خدمتك.

حندوقة: طب حدد واتصل بيَّا أجيلك علطول.

زينات هانم: الواد منصور ده هيفضل يهددنا، لازم تشوف لك حل معاه.

حندوقة: لا هيهدد ولا خلافه، أنا هبقى أبعتله قرشين كمان وخلاص.

نرجع إلى منصور الواقف أمام باب المستشفى لكي يعرف أخبار عنبة وخالته ويداري على توزيع الأطفال الصغار، فهو من دبَّر هذا التوزيع.

فقد أخذت عمر سعيد عائلة مجد الكروم صاحب عزبة آل الكروم، وله أملاك كثيرة وعمارات، ويعيش هو وزوجته صابرين من دون إنجاب، فاقترحت عليه صابرين أن يأخذوا ولدًا صغيرًا لا أهل له، ويكون ابنهما ويعيش معهما، حتى لا تطمع عائلتهم في الأملاك

الخاصة بهم، فهذا الولد سوف يكون حائط صد لهم، وفعلًا نجحت الخطة وجاء منصور بالولد عمر سعيد وأعطاهم هذا الولد.

وتم تغيير اسمه من عمر سعيد إلى تامر مجد الكروم ابن أغنى أغنياء المنطقة.

طلب مجد الكروم منصور وقال له:

مجد الكروم: عاوزك تجيني ضروري.

منصور: حالًا يا باشا.

مجد الكروم: ما تتأخرش عليَّا.

منصور: حاضر.

مجد الكروم: أنت عارف هنتقابل فين؟

منصور: أيوه يا باشا في الكافتيريا اللي على الناصية.

مجد الكروم: ماشي خلاص، يلا مع السلامة.

وذهب منصور إلى الكافتيريا لمقابلة مجد الكروم باشا، وجلس ينتظر الباشا، وبعد فترة حضر الباشا.

منصور: أهلًا وسهلًا يا باشا.

مجد الكروم: أهلًا يا منصور، أخبارك إيه؟

منصور: عايشين من خيرك يا باشا.

مجد الكروم: أنا كنت عاوز منك خدمة.

منصور: أوامرك يا باشا.

مجد الكروم أخذ يلتفت يمينًا ويسارًا واقترب من منصور: أنا عاوز أسجل الواد.

منصور: تقصد عمر سعيد؟

مجد الكروم: لا، حاتم باشا.

منصور: حاتم باشا؟ (هز رأسه وضحك) اسم جميل.

مجد الكروم: أيوه، عندك حد يسجله؟

منصور: نعم يا باشا؟

مجد الكروم: تمام شد حيلك وشوف امتى نروح نسجله.

منصور: وكمان نسجله بتاريخ قديم.

مجد الكروم: بتاريخ قديم ينفع؟

منصور وهو يحرك يده: كله بثمنه.

مجد الكروم: ولا يهمك، أهم حاجة تسجله.

منصور: اتطمن يا باشا.

مجد: طب أنا عاوز شهادة ميلاد بسرعة علشان أعمله جواز سفر علشان يلحق أمه صابرين هانم.

منصور: يلحق أمه صابرين هانم؟ ومين صابرين هانم يا باشا؟

مجد الكروم: صابرين هانم المدام يا غبي.

منصور: أيوه فعلًا أنا غبي، لما نسجل عمر.. أقصد حاتم بيه باسم مجد الكروم لازم أمه تكون صابرين هانم.. بس يا باشا وليه تعمل له جواز سفر؟

مجد الكروم: لأن أمه في إيطاليا لازم يروح لها، ولما تنزل نستقبلها في المطار بالأفراح والزينات ومعاها حاتم بيه، والأهل والأصدقاء يكونوا في الانتظار، وبكده محدش يشك في حاجة، فهمت يا غبي؟

منصور: ياه فكرة جهنمية ما خطرتش على بال حد، أنت عقلك كبير يا باشا.

مجد الكروم: خلص بسرعة واتصل بيَّا.

منصور: حاضر يا باشا.

انصرف الباشا وجلس منصور يفكر ويدبر.. واتصل بالسحلول موظف السجل المدني لكي يتفق معه على هذا العمل.

جاء السحلول وقابل منصور وجلسا في جانب بعيد في الكافتيريا، وشرح له الفكرة.

السحلول: بس الموضوع ده مكلف شوية.

منصور: مكلف يعني إيه؟

السحلول: أنت عاوز تسجله وده حقه، لكن بتاريخ قديم قبل سنتين ده صعب، لأن السجلات بتتقفل كل سنة.

منصور: عليَّا الكلام ده يا سحلول؟ أفكرك بإيه ولا إيه؟

السحلول: أنا سليم طول عمري يا أخويا.

منصور: فاكر لما عملنا بطاقة لبنت قاصر علشان تتزوج من سعودي؟ بلاش دي، فاكر لما عملت شهادة وفاة لراجل علشان يطلع من المولد بلا حمص؟ أقول كمان ولا كفاية...

السحلول: لا كفاية، أنت عاوز إيه بالضبط؟

منصور: عندي حالتين، واد اسمه جابر عرقوبة، والتاني اسمه تامر مجد الكروم.

السحلول: ماشي بس ما يجوش مع بعض، خلي بينهم ساعة على الأقل أو أنا لما أخلص واحد أديك إشارة تجيب التاني.

منصور: ماشي يا دماغ.

السحلول: نتكلم في الفكة.

منصور: أنت عاوز إيه؟

السحلول كتب في ورقة وطبقها وأعطاها لمنصور.

منصور فتح الورقة ونظر فيها: لا كتير.

وكتب رقم وأعطاها للسحلول.

السحلول نظر في الورقة: لا قليل أوي، ارفع شوية، ده أنا مش هيفضل ليَّا حاجة، أنا مش باخذ لوحدي.

منصور: ماشي مش هنختلف، امتى أجي؟

السحلول: البرايز الأول.

منصور: ماشي موعدنا باكر.

السحلول: لا باكر صعب عندنا تفتيش.

منصور: طب امتى؟

السحلول: أنا هبعتلك.

منصور: بسرعه مش عاوزين تأخير.

انصرف السحلول وأخذ منصور يجلس بكبرياء وأرجع ظهره إلى الخلف، وقال لنفسه: الخطة ماشية زي الحلاوة.. وفجأة ضرب على رأسه وقال: ياه أنا نسيت الدكتورة إيمان بنت الدكتور محمد، هي كمان معاها ولد ولازم يتسجل قبل ما تسافر لزوجها في لندن.

فخرج مسرعًا من الكافتيريا ليلحق بسحلول، لكي يقول له ثلاثة أطفال وليس اثنان.

السحلول: زادوا واحد؟ جميل بكده البرايز زادت.

منصور: أيوه يا أخويا البرايز زادت يا ابن المحظوظة.

رجع منصور إلى بيته وكانت خالته في انتظاره، ولما عرف من زوجته أن خالته عند أمه تنتظره، رجع مسرعًا من على الباب خوفًا من مقابلة خالته، ولكن قبل أن يهرب من البيت أسرعت خالته بالإمساك به وجرجرته من ملابسه ودخلت به بعيدًا عن أمه وزوجته، وسألته نفس السؤال..

خالته: فين الأولاد يا منصور؟

منصور: وأنا أعرف منين؟ ومين العيال اللي تقصديهم؟ وبتتكلمي عن إيه يا خالتي؟ هو في المستشفى تتهميني وهنا كمان؟

واتجه ناحية أمه وهو يمثل أنه يبكي.. وينظر إليهم بمكر..

منصور: ينفع كده يا أمي؟ أختك اللي هي خالتي تتهمني بسرقة عيال صغيرة؟

خالته: أيوه يا واد اعملهم عليًا، اسمع يا منصور أنا ما بكلشي من الشوية دول، بس يا ابن أختي وبقولك أهوه قدام أمك وأنا متأكدة من

كلامي، أنك أنت السبب في ضياع الأولاد، أو على الأقل لك يد في سرقة العيال دي، وأقدر اقولك منك لله.

أم منصور: اوعى يا منصور يا ابني يكون لك يد في الموضوع ده!

منصور: يا أم منصور أنا صحيح كنت واقف قدام البوابة بس ما أعرفشي حاجة، خالتي هي اللي دايمًا تتهمني.

زوجة منصور عارفت كل حاجة لأن منصور حاكي لها كل حاجة، تشاهد منصور وهو بيحلف كذب.

خالته: شوف يا منصور أنت عندك عيال ويمكن يكونوا في سن العيال دي، خد في بالك ربنا مش راح يبارك في أولادك لو كنت ورا ضياع العيال دي.

زوجة منصور: لا يا خالتي (نظرت إلى منصور) منصور بريء.

أم منصور: أيوه يا أختي منصور ما يعملهاش (ونظرت إلى منصور) مش كده يا منصور؟

منصور: آه آه ففففففف فعلًا أنا عندي عيال وما أرضاش حد يعمل فيهم كده.

وخرج منصور ومعه زوجته واتجها إلى حجرة نومهما.. ونظر إلى زوجته سنية وقال لها: سمعتي يا سنية خالتي مصممة أني ورا الموضوع ده.

سنية زوجة منصور: ما تقول اللي عاوزة تقوله، هي معاها دليل أنك السبب في ضياع العيال؟

منصور: خالتي حاسة وإحساسها قوي.

سنية: اوعى تضعف قدام خالتك!

منصور: أني خارج عاوزة حاجة؟

سنية: كلك نظر.

منصور: أيوه يعني عاوزة إيه؟

سنية: غويشة دهب، نفسي ألبس دهب يا منصور.

منصور: أنتي اتهبلتي يا ولية؟ عاوزة أمي وخالتي يلاحظوا أنك لابسة دهب وتفضحيني؟

سنية: ما تخافش أنا ألبسهالك في أوضة النوم يا راجل!

وضربته على صدره ضربة حنية.

منصور نظر إليها بحب: ماشي، إذا كان كده استني مفاجأة حلوة.

سنية: إيه هتخليهم غوشتين؟

منصور: ويمكن أكتر يا هبلة، وحسب الاتفاق مع السحلول مقابل الثلاثة.

الدكتورة إيمان ذهبت لكي تسجل الولد الرضيع باسمها واسم زوجها الدكتور، وبعد التسجيل تستخرج له شهادة ميلاد وتصنع جواز سفر وتأخذه وتسافر إلى زوجها الدكتور إلى لندن ومعها ابنها..

وكذلك الباشا من مجد الكروم يسجل حاتم مجد الكروم وأمه صابرين هانم حتى يستخرج له شهادة ميلاد ويصنع له جواز سفر ليلحق بزوجته صابرين هانم..

وأيضًا حندوقة بيه يقوم بتسجيل جابر حندوقة..

وتقابلوا الثلاثة في الكافتيريا وجلسوا من دون أن يعرفوا بعضًا، أو حتى سبب وجودهم، وكان منصور ينتقل من طربيزة إلى أخرى من دون أن يلاحظ أحد، هذا ما كان يعتقد لكن الثلاثة كانوا يعرفون سبب وجودهم هنا، وهو تسجيل الأولاد، لكن لا يعرفون أن الثلاثة أطفال إخوة.

جاء السحلول ومعه شهادات الميلاد وسلمها إلى منصور ورجع إلى عمله في السجل.. وأخذ منصور الشهادات الثلاث وأعطى كل واحد منهم شهادة ميلاد ابنه..

الدكتورة إيمان أخذت شهادة ميلاد نادر.. الذي أصبح لها ابن اسمه نادر شوقي اسم زوجها.. وانصرفت مسرعة إلى السيارة وهي غير مصدقة أنها أخيرًا أصبح لها ابن، فنظرت إلى شهادة الميلاد وقرأت ما فيها.. الاسم: نادر شوقي عبد الشكور. اسم الأم: إيمان محمد رضوان. أخذت تقبل الشهادة وتحركت مسرعة لكي تكمل بقية الأوراق لاستخراج جواز السفر لتذهب إلى زوجها الدكتور شوقي عبد الشكور الذي يستعد لاستقبال زوجته الدكتورة إيمان وابنهما نادر شوقي عبد الشكور.

وأعطى منصور إلى مجد الكروم شهادة ميلاد ابنه حاتم مجد الكروم رضوان، واسم الأم صابرين زكي رضوان، كانت بنت عمه، وذهب إلى السيارة وأخذ ينظر إلى شهادة الميلاد وهو فرحان وطائر من الفرحة، وذهب أيضًا لاستكمال إجراءات استخراج جواز السفر والذهاب إلى إيطاليا إلى زوجته صابرين زكي رضوان، وبعدها يعلن الأفراح السعيدة لأنه رزق بولد اسمه حاتم مجد الكروم رضوان.

وجاء منصور إلى حندوقة بيه وأعطاه شهادة ميلاد ابنه جابر حندوقة الفحل، وأمه زينات هانم، وخرج حندوقة مسرعًا إلى السيارة التي كان يوجد بها عرقوبة وتحركوا إلى البيت، وكانت في انتظارهم زينات هانم ومعها ابنها حب، ودخل عليهم حندوقة وهو يضحك ومعه شهادة ميلاد جابر حندوقة.

زينات هانم: عملت إيه يا حندوقة؟

حندوقة وهو يمسك شهادة الميلاد في يده: أنا حندوقة بيه (ونظر إلى زينات هانم وردد) أنا حندوقة بيه فهمتي ولا؟

زينات قاطعت كلامه: اخلص عملت إيه؟

حندوقة: عملت إيه؟ خلاص يا هانم..

ونظر إلى شهادة الميلاد.. حاتم بيه حندوقة.

زينات أخذتها الغيرة، فكيف يكون مسرورًا هكذا وله ابن من صلبه؟ وهو حب، وقالت في نفسها: الراجل ده مبسوط أوي، يكونشي الواد ده ابنه بجد؟

زينات هانم: اسمع يا حندوقة، أنت مالك كده فرحان أوي؟ اوعى يا راجل أنت يكون الواد ده ابنك بصحيح؟

حندوقة نظر إلى شهادة الميلاد وإلى الولد الذي كان يجلس بجانب زينات: يا ريت كان ابني بصحيح.. (وتغيَّر وجهه واتجه ناحية زينات) أنتي اتهبلتي يا ولية؟ ابني ازاي وأنتي عارفه كل حاجة؟

زينات هانم: أصلك فرحان أوي.

حندوقة: وما أفرحشي ليه؟ وأنا بقى عندي ولدين، حب من صلبي وجابر أخو حب يخاف عليه ويكون دراعه اليمين.. وبعدين أنا لو كنت عاوز أجيب واد من صلبي كنت اتجوزت عليكي بعد ما نزلتي الرحم.

زينات هانم بكت من كلام حندوقة؟

حندوقة طبطب عليها: أنتي هبلة؟ أنا بحبك لذلك ما رضتشي أتزوج وعملت بكلامك أهو وجبت جابر وكتبته باسمي واسمك علشان يكون سند لابننا حب.

زينات هانم: أصل كلامك كان صعب أوي.

حندوقة: أنا آسف متزعليش أنا كنت بفكر معاكي.

زينات نظرت إلى جابر: أنت ابني وده أخوك حب، لازم تحبوا بعض وتخافوا على بعض.

رجعت الدكتورة إيمان إلى الفيلا، وكان أبوها الدكتور محمد في انتظارها، ودخلت عليه وهي في شدة السعادة ومعها شهادة الميلاد، ووقفت أمام والدها وقرأت له بيانات الشهادة.. الاسم: نادر شوقي عبد الشكور. اسم الأم: إيمان محمد.

الدكتور محمد نظر إلى ابنته وهو يشفق عليها وهو صامت لا يتكلم، يشاهد ابنته وهي تتحرك بفرحة وسرور دون أن تشعر بأي شيء حولها، غير التأمل في شهادة الميلاد، ونادت على أم إبراهيم الدادة لكي تحضر لها نادر لكي تحمله وتخبره بأنه أصبح نادر شوقي عبد الشكور ابنها..

جاءت أم إبراهيم الدادة ومعها الولد فجرت الدكتورة إيمان مسرعة وحملت الولد ونظرت إلى وجهه..

الدكتورة إيمان: أنت أصبحت نادر شوقي عبد الشكور، لالا أنت الدكتور نادر شوقي عبد الشكور. (ونظرت إلى أبيها) تعالى شوف الدكتور نادر شوقي عبد الشكور.. (وأخذت تتأمل في وجهه) فعلًا أنت الدكتور نادر شوقي عبد الشكور شكلك كده..

ونظرت الدادة أم إبراهيم إلى الدكتور محمد وهي صعبان عليها الدكتورة إيمان من أفعالها تجاه الولد، لكن الدكتور محمد قال لها: خذيه يا أم إبراهيم يلا.

الدكتورة إيمان: لا سيبيه معايا شوية يا دادة.

أم إبراهيم: خليه معاكي يا بنتي ولا يهمك.

الدكتورة إيمان وهي تنظر إلى وجه نادر: شايفة يا دادة نادر وجهه بريء وحلو.

أم إبراهيم وهي تنظر إلى الدكتور محمد: فعلًا يا بنتي.

الدكتور محمد: عطي الواد لأم إبراهيم.

الدكتورة إيمان مقاطعة لكلام أبيها وبنرفزة: لا لا خليه معايا. (ونظرت إلى أبيها) وبعدين إيه الواد ده يا بابا؟ ده اسمه نادر.. آه آه الدكتور نادر شوقي عبد الشكور.

الدكتور محمد وهو ينظر إلى أم إبراهيم: فعلًا الواد ده، آه آه أقصد الدكتور نادر شوقي عبد الشكور يا أم إبراهيم اوعي تنسي.

أم إبراهيم وهي واقفة صعبان عليها الدكتورة إيمان: طبعًا الدكتور نادر شوقي عبد الشكور ربنا يبارك فيه ويحفظه.

خرجت الدكتورة إيمان وهي تحمل ابنها نادر وصعدت به إلى الدور الثاني، تاركة أبيها وأم إبراهيم ينظران إليها وهي تصعد حاملة نادر.

الدكتور محمد نظر إلى أم إبراهيم: احنا هنعمل إيه دلوقتي؟

أم إبراهيم: هنعمل إيه؟ العمل عمل ربنا.

الدكتور محمد: أيوه نتصرف ازاي؟

أم إبراهيم: نادر ابنها بقى رسمي.

الدكتور محمد: هي دي الداهية السودة.

أم إبراهيم: لا داهية ولا حاجة.

الدكتور محمد: أنتي شايفة إيه؟

أم إبراهيم: أنت شايف الدكتورة إيمان فرحانة ازاي بالواد؟

الدكتور محمد: أيوه يا أم إبراهيم، فعلًا إيمان فرحانة بيه أوي، وده اللي مخوفني.

أم إبراهيم: لا مخوفك ولا حاجة، ده ابنها خلاص، لازم يا دكتور نتعامل معاه على أنه ابنها وابن الدكتور شوقي، (ونظرت إلى الدكتور محمد) وأنت جده والبيت ده بيته.

الدكتور محمد: بس ازاي؟

أم إبراهيم قاطعته: زي الناس، اسمع يا دكتور محمد، بنتك فرحانة، اوعى تكسر خاطرها، وبعدين أنت مش قلت إنك تعرف الواد ده كويس، يعني مش من ملجأ ولا من الشارع.

الدكتور محمد نظر إلى أم إبراهيم في صمت: هي دي المشكلة، أنا شايف إن أخته عنبة بتموت قدامي وأنا مش عارف أساعدها، يا ترى أفرحها وأرجع لها أخوها وأزعل بنتي؟ ولا أسكت وأشوف البنت بتموت قدامي؟ أعمل إيه؟ دبَّر لي يا ربي.

أم إبراهيم: أنت بتقول حاجة يا دكتور؟

الدكتور محمد: لا لا أنا بس بفكر أعمل إيه.

أم إبراهيم: معتشي فيها تفكير، هي خلاص بتجهز علشان تسافر للدكتور شوقي.

الدكتور محمد: فعلًا خلاص، الموضوع خلص خلاص.

مجد الكروم رضوان رجع إلى العزبة ومعه شهادة ميلاد ابنه حاتم بيه مجد الكروم رضوان، ودخل إلى غرفة نومه وارتمى على سريره وهو فرحان ومسرور، وأخذ ينظر إلى شهادة الميلاد ويتأمل فيها وينظر إلى سقف الحجرة ويتخيل أخواته وأخوات زوجته وهم مصدمون بهذا الولد، أقصد بهذا الحاتم الذي سوف يحرمهم جميعًا من الميراث، لأنهم لا يستحقون الميراث، لأنهم عاشوا على أنه وزوجته أرض بور لا ينجبان أطفال، وسوف يرثون الأراضي والعمارات وهم مرتاحون، وانتفض مسرعًا: لازم أتصل بزوجتي صابرين هانم لكي أبشرها بأنني سوف أكون عندها في أقرب وقت ومعي ابننا حاتم بيه.

وجرى على التليفون واتصل بزوجته صابرين هانم ليخبرها بما صنع وأنه سوف يكون هناك بسرعة ومعه حاتم ابنها.

وفعلًا جهَّز نفسه للسفر ومعه حاتم وغادر مصر متجهًا إلى إيطاليا، وكانت زوجته صابرين هانم في انتظاره في مطار روما، وجرت على زوجها وأخذت منه حاتم، ونظرت في وجهه وانجذبت نحوه بصورة غريب وكأنه ابنها فعلًا، وقربته إلى حضنها ولم تأخذ بالها من زوجها مجد الكروم، وجلست على أقرب كرسي في المطار وهي تنظر إلى حاتم، وزوجها ينظر إليها في استغراب شديد من هذا الاستقبال، وشك أن يكون هذا الولد ابنها فعلًا لولا أنه هو من جاء بالولد، لكان شك في أنه ابنها، فضحك من العجب العجاب وقدرة الله في ذلك.

صابرين بعد فترة طويلة أيقنت أن مجد الكروم موجود فنظرت إليه بحنية وعطف: أنا آسفة يا مجد.

مجد الكروم: أنتي مش واخدة بالك أني هنا في إيطاليا وما شفتكيش من فترة طويلة.

صابرين: إيه المفاجأة الجميلة دي؟

مجد الكروم: فعلًا، وأنا مفاجأة جميلة.

صابرين نظرت إليه: أنا أقصد حاتم.

مجد الكروم: آه فعلًا جميلة. (ونظر إليها) أنتي راح تخليني أغير ولا إيه؟

ضحكا من قلبيهما وانصرفا من المطار متجهَيْن إلى الشقة التي تسكن فيها صابرين.

وصلا إلى الشقة وقالت له:

صابرين: أنت فكرت هتقول إيه للعائلة؟

مجد الكروم: أنا فعلًا قلت لهم.

صابرين: قلت لهم إيه؟

مجد الكروم: أنا كنت مفهم الكل أنك في إيطاليا مع ابنك، بس أنتي كنتي مخبية ومش عاوزة حد يعرف، بس دلوقتي معتشي ينفع تخبي، علشان كده رايح إيطاليا علشان أرجع بيكي وابني.

صابرين: وهما صدقوا؟

مجد الكروم: صدقوا ولا عنهم ما صدقوا، حد له عندنا حاجة؟

صابرين: أيوه عندنا لهم كتير.

مجد الكروم: أيوه، آه ربنا جاب لنا الواد اللي يحرمهم من الطمع والجشع وقلة الذوق اللي كانوا بيعاملونا بيها لما عرفوا أننا مش هنخلف.

صابرين: بس أنا خايفة على حاتم.

مجد الكروم: معاكي حق، وأنا هعمل حسابي.

صابرين: تعمل حسابك ازاي؟

مجد الكروم: هيكون هناك حراسة مشددة على حاتم وربنا عالم بينا.

صابرين: طب هنعمل إيه دلوقتي؟

مجد الكروم: هبعتلهم ميعاد نزولنا ويعملوا حفلة كبيرة يدعوا فيها كبراء الناحية، ويدبحوا الدبايح ويوزعوها على أهل البلد والبلاد المجاورة احتفالًا بوجود حاتم بيه.

تمر السنين ويكبر الأولاد الثلاثة كلٌّ في أسرته وتربيته حسب المكان الذي هم فيه فعلًا..

نادر شوقي عبد الشكور أصبح دكتورًا كما كانت تريد الدكتورة إيمان وزوجها الدكتور شوقي.

وحاتم بيه أصبح وكيل النائب العام والكل يحترمه ويهيبه، وهو كان ابنًا بارًّا بأمه صابرين هانم وأبوه مجد الكروم، وأهل بلده الكل يحبه ويحترمه والكل في خدمته..

الفصل الثالث أشجار بلا جذور

جابر عاش عند حندوقة، وتربي في بيت مع حندوقة وزينات وابنهم حب، حياة غلط، حيث تجارة المخدرات والاختفاء تحت تجارة مواد غذائية ومحلات تجارية تبيع جميع المواد الغذائية.

حندوقة عكف على تدريب حب وجابر فن تجارة المخدرات والتمويه في بيع المنتجات الغذائية، ونجح نجاحًا كبيرًا في ذلك، استطاع خلال السنوات الماضية تعليم الاثنين وأصبح جابر جاهزًا تمامًا، وكان يتعلم بسرعة عن حب لشدة ذكائه، وانتبه إلى ما يحدث من تعاملات السوق في التجارة واستطاع أن يكون الرجل الأول بعد حندوقة، لكن حب كان رهيف، زينات هانم كانت تدلعه وتمنحه اهتمامًا أكثر من جابر، بل تركت أم عرقوبة وابنها عرقوبة يهتمون لجابر أكثر، وكان حندوقة يميل إلى جابر؛ لأنه كان ذكيًّا وشديد الفهم، وأصبح جابر كل شيء في حياة حندوقة، وترك حب إلى أمه زينات تفعل به كيف تشاء.

ذات يوم دخل حندوقة على زينات هانم وكان حب ينام في حجرها، فغضب حندوقة ونظر إلى زينات بغضب شديد، وهمَّ أن يغادر المكان..

زينات: فيه حاجة يا حندوقة؟

حندوقة بيه: بصي لنفسك أنتي وابنك الدلوعة، (ونظر إلى حب وشخط فيه) قوم اقف من حجر أمك واتعدل، أنت إيه مش راجل؟

زينات هانم: فيه إيه يا حندوقة؟ أنت بتتكلم مع ابني كده ليه؟

حندوقة: يا ولية كبري الواد علشان يحافظ على ماله وعزوته.

زينات: وأنت وجابر بتعملوا إيه؟

حندوقة: جابر واد جدع ممشي الشغل أحسن مني، بس أنا كنت عاوز حب هو اللي يمشي الشغل، فاهمة ولا مش فاهمة؟

حب: هو أني وجابر إيه؟ مش واحد؟ هو صحيح أخويا الصغير بس هو أشطر مني.

زينات نظرت إلى حب وقالت له وهي تهرش في رأسه وهو نائم في حجرها، بس أنت يا حبيبي لازم تعرف كل حاجة، يعني أنت صاحب المال والجاه.

حندوقة قاطع كلام زينات بسرعة: اسكتي أنتي حتقولي إيه؟

زينات: أنا عاوزة أعرَّف حب أنه الكبير ولازم يكون هو صاحب الأمر والنهي.

حندوقة: أيوه أيوه كلامك صح، اسمع كلام أمك يا حب مهما كان جابر الصغير والمفروض إنك تكون مكاني.

زينات: احنا خايفين عليك من الزمن، يعني لازم تكون أنت الكل في الكل.

حب: أنا فاهم، بس أنا وأخويا بنحب بعض، وأنا معتمد عليه وهو الحقيقة بيعرفني على كل حاجة.

حندوقة: طب أنا جايبلك عروسة.

زينات: عروسة حلوة؟

حندوقة: حلوة بنت ناس.

زينات: مين؟ وبنت مين؟

حندوقة: أنتي تعرفيها كويس، وحب كمان يعرفها كويس.

حب: أنا أعرفها كويس؟

زينات: مين دي يا حندوقة؟

حندوقة جلس بجوار زينات ورفع رأس حب من حجر أمه: دي شهد بنت المعلم دبور الخشن.

زينات: بتقول بنت مين؟

حندوقة وهو ينظر إلى حب: إيه رأيك يا حب؟

حب لمعت عيناه عندما عرف أنها شهد بنت دبور الخشن، وفرح ونظر إلى أمه، وابتسمت أمه، فاستغرب حندوقة وتعجب لهما..

حب: أنا موافق.

حندوقة: على طول كده؟

زينات: حب كان لسه جايب في سيرتها.

حندوقة: سيرتها؟

زينات: أيوه، ابنك بيحبها وواقع في شوشته.

حب نظر إلى أمه وهو محرج، ونظر في الأرض من الإحراج: أنا أيوه بحبها.

حندوقة: وأنت شفتها فين؟

حب: في الجامعة، هي زميلتي.

حندوقة: زميلتك ازاي وأنت أكبر منها بكتير؟

حب: أنت عارف أني كنت بتأخر شوية في التعليم.

حندوقة: بتتأخر ولا بتسقط؟ بتاخد السنة في اتنين، ولولا أمك بتوصي عليك ما كنتش نجحت.

زينات: فيه إيه يا حندوقة مالك؟

حندوقة: لو كنا علمنا الواد جابر مش كان زمانه دكتور كبير ولا ضابط شرطه قد الدنيا!

زينات: ومين اللي كان يفهم الشغل؟ أنت ناسي ولا إيه؟ (وخفضت صوتها) مش احنا جبناه علشان ياخد باله من الشغل ومن حب؟

حندوقة: آه آه ماشي نرجع للموضوع، شهد كانت معاك في الجامعة صح؟

حب: صح.

زينات: أنا عاوزة أشوفك عريس يا حب يا ابني.. نفسي.

حب: شهد هي البنت المناسبة ليَّا.

زينات: ماشي، بس أنت متأكد منها يا حب؟

حب: أيوه، فيه شوية إعجاب.

دخل جابر وهو مبسوط من اللي عمله، لأنه خلص صفقة العنب من عند الكروم باشا، وقابل هناك راجل طيب جدًّا بيشتغل مع الكروم باشا وهو الكل في الكل.

حندوقة بيه: أيوه مش سعيد؟

جابر: أيوه اسمه سعيد راجل محترم.

حندوقة: هو أهم واحد في عزبة الكروم باشا.

جابر: هو الكروم باشا له أولاد؟

حندوقة بلجلجة وتقطيع في الكلام: أيوه عنده ولد اسمه حاتم بيه وكيل نيابة.

جابر: بس أنا عمري ما شفته خالص.

حندوقة: أصلهم كانوا في إيطاليا وبعدين رجعوا، وابنه حاتم خلص حقوق وبعدين اتعين وكيل نيابة.

جابر: وسعيد ده مين؟

حندوقة: راجل غلبان قابل الكروم باشا من فترة ووافق على أنه يشتغل معاه.

جابر: لا مش فاهم، يعني أي حد يقابل أي حد يقوم يشغله؟

حندوقة: لا مش كده بالضبط، مش أنت بتقول إنك شفته؟

جابر: سعيد؟

حندوقة: أيوه.

جابر: أيوه شفته.

حندوقة: ابقى اسأله.

زينات: هو فيه إيه؟ احنا كنا بنتكلم في إيه؟ وأنتوا بتتكلموا في إيه؟

جابر جلس بجوار حب وسأله: مالك يا غالي؟

حب: عاوزيني أتجوز يا سيدي.

جابر ضحك وهو فرحان من هذا الخبر: وماله علشان أنا ممكن أعملها، بس يبقى عيب أعملها قبل أخويا الكبير.

حب نظر إلى جابر وطبطب عليه وشكره.

زينات: إيه رأيك يا جابر في شهد بنت دبور الخشن؟

جابر تلعثم في الكلام.. أخذ يلف ويدور مش عارف يقول إيه؛ لأن شهد وجابر كانوا على علاقة قوية ودائمًا يتقابلون ويخرجون، وكان بينهما حب كبير، ولكن جاءت المفاجأة التي كان لا يعمل لها حساب، وكيف يصنع بعد هذا الكلام؟ ودار في ذهنه ما كان يدور بينه وبين شهد، وأنه وعدها بالزواج، لكن كانت مشكلته أنه غير متعلم، وهي نقطة ضعفه، لكنها كانت تقول له: ولا يهمك أنت شاطر وماسك كل أعمال أبوك. وأبوها يعرف ذلك وكان دائمًا معجبًا بجابر وأنه ذكي وهو سبب من أسباب غنى حندوقة، وأصبح صاحب شهره كبيرة في أوساط المجتمع وكل رجال الأعمال يعرفون أن جابر هو سبب ذلك.

زينات هانم: إيه يا جابر سرحان فيه؟

جابر: في الفرح اللي بتاع حب، بكرا نعزم كل رجال الأعمال في الناحية كلها.

حندوقة: أصيل يا جابر يا ابني.

جابر: وهو عندنا أغلى من أخويا حب؟

زينات: ربنا يخليكوا لبعض.

خرج جابر وهو مش عارف يعمل إيه ولا يتصرف ازاي؟ لكن من دون وعي اتصل بشهد وأراد أن يقابلها في المكان الذي يتقابلان فيه، وجاءت شهد وحاولت معرفة لماذا جابر حزين ولا يتكلم، ولكن جابر صامت لا يتكلم ولا ينظر إليها، فاستغربت جدًّا من جابر، وقالت لنفسها: مش ده جابر اللي أنا أعرفه، جابر مرح ودمه خفيف وكثير الكلام، يعني مش صامت ولا ساكت، لا بد وأن هناك شيء ضروري مزعله.

حاولت لكن جابر ساكت، فأرادت أن تنصرف وتتركه في هذه الحالة وسارعت بالانصراف عسى أن يتكلم، ولكن ظل جابر واقف مكانه لا يتكلم ولا ينظر إليها، فغضبت جدًّا وركبت سيارتها وغادرت المكان وهي تبكي ولا تعرف ماذا حصل، جابر هو من طلبها ليتحدث معها وأيضًا حدد الميعاد، وجاءت، ولكن جابر ساكت لا يتحدث صامت ولا يتحرك.

وقف جابر ينظر إليها وهي تنصرف من أمامه ولم ينطق بكلمة واحدة حتى غادرت المكان، فرجع إلى الخلف ينظر إلى الأشجار والطيور وهي تقف على الأشجار وكأنها تنظر إليه بحزن شديد على ما حدث له، وعلى الحب الكبير الذي كان بينه وبين شهد، وأخذ يتكلم مع الطيور لعلها تفهمه وترشده إلى حل.. هل يصارح أمه وأباه بأنه يحب شهد وهي تحبه؟ كيف يصنع؟ لكن الطيور لم ترد عليه وأخذت تنظر إليه بحزن عميق.

رجع جابر إلى البيت، وهو يدخل لمح أم عرقوبة تقف على مدخل حديقة البيت وهي تنظر إليه بإحساس الأمومة؛ إذ أنها من قامت على تربيته ورعايته وهو صغير، وقضى معظم الوقت عندها، وكان يسأل نفسه لماذا أمه زينات هانم تتركه إلى أم عرقوبة هي التي تتولى رعايته وتربيته، والمفروض الذي يقوم بهذا العمل الأم.

ذهب مسرعًا إلى أم عرقوبة وارتمى في حضنها، وطبطبت عليه وهزت رأسها وقالت له: بلاش تعمل اللي في دماغك.

جابر رفع رأسه من على صدر أمه الحقيقية التي تولت تربيته ورعايته: أنتي تقصدي إيه؟

أم عرقوبة: ابعد يا ابني، أنا آسفة أنت زي ابني.

جابر نظر إليها: أنتي أمي الحقيقية، أنتي من رعاني وربـاني، عارفة أنا بحس أن أمي زينات هانم مش أمي، بحس أنها بتحب حب أخويا أكثر مني، لكن اللي بيحسسني أني ابنه فعلًا حندوقة بيه، شتان بين الاثنين.

وقبل أن يتمَّ كلامه قاطعته..

أم عرقوبة: لا يا ابني.. آه آه آه أقصد يا جابر بيه.

جابر أخذ يقبل يديها: أنتي أمي، بلاش جابر بيه.

أم عرقوبة: ازاي يا جابر بيه؟ أنت عاوز زينات هانم تبهدلني!

جابر: على الأقل وأنا هنا معاكي بعيد عن زينات هانم، كلمة يا جابر يا ابني بحسها منك أحسن. هه أنتي عاوزة تقولي لي حاجة، هي إيه؟

أم عرقوبة: بلاش موضوع شهد بنت دبور.

جابر نظر إليها بحدة واستغراب: شهد بنت دبور، مالها؟

أم عرقوبة: أنت فاهم وأنا فاهمة.

جابر: فاهمة إيه بالضبط؟

أم عرقوبة: أنا يا جابر شفت وسمعت.

جابر: شفتي وسمعتي إيه؟

أم عرقوبة: وزينات وحندوقة عاوزين حب يتزوج شهد بنت دبور.

جابر: فعلًا هما عاوزين كده.

أم عرقوبة: وأنت وشهد بتحبوا بعض.

جابر وقف مخضوض: أنتي بتقولي إيه؟

وأخذ يعرفها أنها تتكلم مع جابر بيه وهي خدامة عندهم وازاي تتحدث معه في ذلك، فبكت أم عرقوبة ووقعت على رجله لكي تقبلها، لكنه نهض بها ورفعها إلى أعلى ونظر إليها وهو في قمة الغضب وتركها وخرج، فجاء عرقوبة ابنها وتحدث مع أمه..

عرقوبة: أنا مش حذرتك من كده؟ أنتي ما بتسمعيش الكلام، أهو زعل ويمكن يقلب علينا ويروح يقول لزينات هانم وممكن تطردنا.

أم عرقوبة: لا مش راح يعمل كده.

عرقوبة: بس أنتي كنتي شديدة عليه.

أم عرقوبة: كان لازم يفهم ويعرف أنه مش قد زينات هانم.

عرقوبة: واحنا مالنا بس؟ بتجيبي وجع الدماغ لنا ليه؟

أم عرقوبة: ده ابني زيك بالضبط.

عرقوبة: ابنك إيه؟ أنتي صدقتي نفسك؟

أم عرقوبة: أيوه مصدقة نفسي وبكره أفرجك.

عرقوبة: بكره ده يا نكون في الشارع يا في السجن.

دخل جابر غرفته وأخذ يفكر في كلام أم عرقوبة، وهي تقصد إيه؟ ونظر إلى نفسه في المرآة، ويتحدث إليها، عن هل هو في حلم أم حقيقة؟ كيف أنه أحب شهد حبًّا كبيرًا وعاش معها حلمًا جميلًا وأيامًا حلوة أوي، لكن استفاق على الحقيقة، أن هذا الحب يتبخر بسرعة.. وفجأة توقف عن التفكير، وافتكر كلام أم عرقوبة له، فخرج مسرعًا ولم يرَ زينات هانم وهو في طريقه إلى الحديقة حيث غرفة أم عرقوبة.. ودخل عليها وكانت ما زالت تتحدث مع ابنها عرقوبة، فكان جابر يقف بينهما، فاستغرب عرقوبة ونظر إلى أمه..

فقالت له: أنا مش قلت لك إن جابر ابني مش ممكن يزعل مني.

جابر جرى على يدها وأخذ يقبلها ويعتذر لها، فاستغرب عرقوبة وذُهل من المنظر، جابر بيه اللي الكل يعمل له حساب وقوي يكون ضعيف وحنين..

أم عرقوبة أخذت جابر وجلسا على أقرب كنبة، وشرحت له أنها وعرقوبه يحبانه ويخافان عليه من الهواء الطائر، وأنهما مستعدان للموت من أجله.

جابر نظر إليها وهو يمسك يدها ويقبلها ويقبل رأسها: أنا آسف اوعي تزعلي مني.. أنا غلطان.

أم عرقوبة: لا اوعى تقول كده، وقوم اقف وشد حيلك واعمل زي ما قلت لك، بلاش شهد بنت دبور، ابعد عن الشر أنت مش قد حب وزينات وحندوقة، وكمان ما تنساش أنه أخوك الكبير ولازم تفرح لفرحه وهو بيحب شهد.

جابر: وأنا بحبها وهي بتحبني.

عرقوبة: فعلًا أنا عارف كده.

أم عرقوبة ضربت ابنها عرقوبة على بطنه: اسكت يا غبي، أنت تسكت خالص اوعى أسمع صوتك.

عرقوبة بعد بعيد وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

أم عرقوبة: اسمع يا ابني، أنت لازم تبعد عنها، خلاص ما ينفعشي أخوك يتكلم عليها وأنت تكون واقف حيطة بينهم، وبعدين أنت لسه صغير وكمان أنت شاطر وأي واحدة تتمناك.

جابر: بس أنا بحب شهد وهي بتحبني.

أم عرقوبة: خلاص ما فيش فايدة، حتى لو رفضت حب ماعتشي ينفع تكلمها.

خرج جابر وهو مكسور الخاطر ومش عارف يروح فين، وأخيرًا ذهب إلى عزبة الكروم باشا، وقابل سعيد ولا يعرف لماذا سعيد بالذات الذي توجه إليه؟ شيء من دون وعي حمله على الذهاب إلى سعيد.

قام سعيد بالترحيب به وقدم إليه الشاي، ونظر سعيد إلى وجه جابر وانجذبت مشاعره تجاه جابر، وكانت مشاعر أبوة حقيقية، ووضع يده على كتف جابر..

سعيد: أنت مالك يا جابر بيه؟

جابر: لا مافيش، بس أنا حاسس بشوية تعب.

سعيد: أنت شكلك كده اتغدر بيك.

جابر رفع رأسه نحو سعيد الذي كان ينظر إليه بنظرات لامعة يظهر فيها حنية وحب لم يشاهده في وجه حندوقة، واندهش من هذه النظرات التي تحمل طابع الحنية.

جابر: أنت مين؟

سعيد: أنا مين؟ (بلهفة ورعب) أنا سعيد مزارع الكروم باشا ومسؤول عن العزبة.

جابر: أنا عارف، لكن أنا بسالك أنت مين؟ وليه من ساعة ما شفتك واتعاملت معاك وأنا مجذوب لك بشكل غريب؟

سعيد: أنا أنا واحد ضاعت منه أسرته، أنا كنت متزوج وعندي أولاد، لكن فجأة راحوا كلهم، ومعرفشي حاجة عنهم، أنا قصتي طويلة وكل يوم بتعذب لما بفتكر مراتي وهي واقفة قدامي ومش عاوزاني أسيبها وأمشي، وبنتي وإخواتها الأطفال واقفين يتفرجوا عليَّا وأنا راكب سيارات الترحيلة.

جابر: سيارات الترحيلة يعني إيه؟

سعيد: كان زمان من عشرين سنة فيه حاجة اسمها ترحيلة، الدولة كانت بتستصلح الأراضي الزراعية وتعطيها للفلاحين يزرعوها فكانت بتحتاج عمال ترحيلة يستصلحوا الأراضي بس بأجر عالي عن أي عمل، وكانت الترحيلة عمل منظم بتشرف عليه الدولة والعمال الغلابة اللي كانوا بيدوروا عن زيادة الدخل يستنوا الترحيلة كل سنة علشان يرجعوا معاهم فلوس أكتر من شغلهم في البلد اللي هما عايشين فيها.

جابر: وبعدين؟

سعيد حكى ما حدث له وكيف ضاعت أسرته التي لا يعلم عنها شيئًا.

جابر: طب وصلت للكروم باشا ازاي؟

سعيد: وأنا ماشي في البلاد ببحث عن زوجتي وأولادي رجلي تحدفني من بلد لبلد ومن مكان لمكان، وفي يوم تعبت جدًّا من اللف والدوران والبحث، مرة في الحر ومرة في البرد والمطر، لغاية ما قعدت تحت شجرة ونمت، وبعد شوية سمعت صوت شخصين بيتكلموا عن خطة وهي قتل الكروم باشا، وأنا ما أعرفهوش، لكن كانوا بيتكلموا عن أنه استطاع أن يخلف ولدًّا، وأن العزبة ضاعت والأملاك كلها راحت بخلفة الواد، وأن الواد مع أمه في بلاد بره ولازم يتخلصوا منه قبل ما يسافر عشان يجيب الواد ويقش كل حاجة زي ولد الكتشينة ويطلعوا من المولد بلا حمص.

سمعت الكلام ده ولم أسكت، سألت عن الكروم هذا حتى وصلت له، وكان يستعد للسفر حتى يأتي بزوجته وابنه، حاولت أن أتحدث معه لكنه كان مشغول جدًّا فلم أستطع التحدث معه، لكن كان موجود واحد من الاثنين اللي كانوا يتحدثون عن قتله ووضع الخطة والتنفيذ بعد أن يأتي بابنه وزوجته من السفر.

غادر البلاد وأنا لم أصل إليه ولم أتحدث معه وأنصحه من قريبه الذي يتودد إليه بأنه سوف يرجع ومعه زوجته وابنه وسوف يكون في انتظاره بعمل ليلة كبيرة يعزم فيها كبراء الناحية ويدبحوا الدبايح ويوزعوها على الفقراء مثل ما فعلوا المرة الماضية.

كنت أقف بعيدا وأسمع هذا، ولكن لم أرَ فرصة للوصول إليه فسافر وغادر البلاد، ففكرت في فكرة: لازم أكون موجود وقريب من المكان حتى لو عاد الكروم باشا أقابله وأنصحه، فذهبت إلى قريب الكروم هذا وكان اسمه معيوب، تحدثت معه وشرحت له إنني غريب وأبحث عن عمل.

معيوب: أنت منين؟

سعيد: أنا من بلد بعيد أبحث عن زوجتي وأولادي ضاعوا مني منذ فترة ولم أجدهم، وأريد أي عمل حتى أعيش منه.

معيوب: طب وأنت جاي لنا ليه؟

سعيد: سمعت عنكم وأنكم ناس طيبين فدلوني الناس عليكم.

معيوب: وأنت بتعرف تشتغل إيه؟

سعيد: أنا فلاح، كنت بشتغل في بلدنا فلاح عند الناس مقابل أجرة.

معيوب: أنت لو كنت جيت بدري شوية كنت قابلت الباشا.

سعيد: طب ممكن أستناه لغاية ما يرجع.

معيوب: يرجع فين؟ ده مسافر خارج البلاد.

سعيد: يعني راح يغيب؟

معيوب: الله أعلم، هو ما قلشي هيرجع امتى.

كان موجود غفير العزبة ووَشْوِش معيوب، فنظر معيوب لي وقال: طب أنت لو اشتغلت عندنا راح تنام فين؟

سعيد: في أي حتة، أنا لوحدي ممعييش حد.

معيوب: ماشي يا غفير معوض.

معوض الغفير بتاع العزبة: أيوه يا معيوب بيه.

معيوب: خد أنت اسمك إيه؟

سعيد: أنا اسمي سعيد.

معيوب: خده يا معوض معاك في الأوضة بتاعتك ينام معاك.

معوض: حاضر يا معيوب بيه.

انصرف سعيد مع معوض الغفير إلى الغرفة بجوار باب السرايا..

ودخلت مع معوض وسألته عن معيوب..

معوض: وطي صوتك لحسن حد يسمعنا.

سعيد: حد مين؟

معوض: الحيطة لها ودان.

سعيد: هو فيه إيه؟ ومين معيوب ده يا معوض؟

معوض: ده مصيبة وواد شر والعزبة كلها بتخاف منه، والباشا عارف كده كويس.

سعيد: والباشا ساكت عليه ليه؟

معوض: أصله قريبه من العائلة.

سعيد: آه.

هز رأسه وتذكر كلمته مع واحد آخر وهو يقول نطلع من المولد بلا حمص.

معوض: أنت رحت فين يا جدع أنت؟

سعيد: أنا سعيد.

معوض: طب وأنا مالي؟ سعيد حزين أنا أعرفك يعني؟

سعيد ضحك: أنا اسمي سعيد.

معوض: آه آه اسمك سعيد**!**

وضحك الاثنان.

سعيد: طب الباشا مسافر ليه؟

معوض: الباشا بتاعنا راجل طيب وبيعطف على الناس كلها ومعاه زوجة بنت ناس طيبين وطيبة ودايمًا حنينة في حق الغلابة، بس عيلة الباشا ناس صعبة ووحشين في حق الناس وطماعين، طبعًا لما الباشا ربنا أعطاه ولد وكانت مفاجأة، الناس كلها فرحت للباشا والهانم إن ربنا رزقهم بولد يعوضهم عن الحرمان.

سعيد: آه طبعا عيلته زعلت لأن كانوا فاكرين إن الباشا والهانم مش بيخلفوا والعزبة والأملاك في النهاية راح تكون لهم.

معوض: أنت مش سعيد، أنت ذكي، هو ده اللي حصل بالضبط، ومن ساعتها ومعيوب غاضب وهيموت لكن بيحاول يظهر للباشا أنه في قمة السعادة.

سعيد: والباشا مش عارف أن العيلة زعلانة و..

معوض: الباشا عارف ومتأكد من كده، لذلك سفر الهانم بلاد بره خوفًا عليهم.

سعيد: والباشا مسافر يجيبهم؟

معوض: لالا محدش يعرف إلا أن الباشا بيروح يتطمن عليهم وبيرجع تاني.

سعيد: وأنت عرفت منين يا ناصح؟

معوض: أني الوحيد اللي عارف، أصل الباشا مابيخبيش عليَّا حاجة خالص وأني سره الوحيد هنا.

سعيد: واضح.

معوض: أنت بتفكر أني ممكن أقول لحد مهما يكون عن أسرار الباشا؟

سعيد: مفهوم.

وهز رأسه..

معوض: لا أنا بس ارتحت ليك واللهِ، مش عارف ليه من ساعة ما شفتك وأنا ارتحت لك على طول، حتى أنا اللي وشوشت معيوب وقلت له خليه ويسكن معايا.

سعيد: آه ساعة ما كنت بتوشوشه؟

معوض: أيوه أنت أخذت بالك؟ يخرب عقلك مش أني قلت عليك ذكي، وعلى فكرة الباشا ممكن ينبسط منك أوي.

سعيد: وأنت إيه اللي عرفك وخلاك متأكد أوي كده؟

معوض: هو راح يسألني، وأني ليَّا رأي برضه.

سعيد ضحك وفرح بكلام معوض، وبعد عدة أيام الباشا أخطر معيوب أنه راجع من السفر، فأخذ معيوب يحضِّر الخطة وهي التخلص من الباشا، وزوجته، وابنه بضربة واحدة. لكنه لا يعرف أن الباشا راجع لوحده تاركًا زوجته وابنه حاتم بيه بعيدًا عن معيوب والعائلة الطمعانة في أملاكه.

وعند أول الطريق سوف تبدأ الخطة للتخلص من الباشا بمساعدة العصابة التي اتفق معها معيوب، وعند التنفيذ ظهر سعيد وهجم على أفراد العصابة وأخذ يتعارك معهم والتخلص منها حتى لا يتعرض الباشا لخطرهم، وفعلًا نجا الباشا منهم ولكن سعيد أخذ طلقة في ذراعه الأيمن، ووقع مغمى عليه، فجرى الباشا ومعه معوض ومعيوب إلى سعيد وحملوه إلى المستشفى لكي ينقذوه من الموت بأعجوبة، وتم إسعافه ورجع إلى العزبة بصحبة معوض ودخلوا على الباشا فقام بتحية سعيد وعرف من سعيد الحقيقة، لكنه لا يقدر على التخلص من معيوب، إذ أنه من العائلة، ولكن أخذ يفكر هو وسعيد على خطة للتخلص من معيوب.

فاستعان بحندوقة على أن يساعده بالتخلص من معيوب، وفعلًا استطاع حندوقة أن يتخلص من معيوب حيث وضع له شنطة مخدرات في سيارته وهو راجع من إحدى سهراته الحمراء، وبلغ الشرطة عن معيوب وتم وضع كمين والقبض على معيوب ومعه شنطة المخدرات في سيارته، وتحول للمحكمة.. أخذ حكمًا طويلًا مؤبدًا.. وهكذا تخلص الباشا من معيوب وأدب العائلة، فقد كان معيوب أقوى فرد في العائلة.

وبعد عدة سنوات جاءت الهانم ومعها حاتم بيه إلى العزبة لكي يكمل دراسته في مصر، وفعلًا دخل الجامعة وتخرج من كلية الحقوق وأصبح وكيل نيابة ودي كل قصتي.

جابر: ياه قصة غريبة وعجيبة، بس أنت ما ذكرتش حاجة عن أولادك وزوجتك!

سعيد: انا ماخلتشي مكان إلا ما سألت فيه عنهم.

وفي هذه اللحظة جاء حاتم بيه بسيارته الفارهة، ومعوض جرى ليفتح له الباب، ودخل حاتم بيه ونظر ناحية سعيد فوجد شابًّا يجلس معه، فنزل من السيارة واتجه نحو الشاب وسلَّم على سعيد وسأله عن هذا الشاب.

سعيد: جابر ابن المعلم حندوقة اللي بيشتروا منا المحاصيل الزراعية.

حاتم بيه: أيوه أهلًا بسك يا جابر.

وسلم عليه، ولكن نظر إليه نظرة شديدة شدت انتباهه، وذهب إلى السرايا.

جابر: هو نظر لي نظرة غريبة! وأنا كمان زي ما يكون شفنا بعض قبل كده.

سعيد: شفته فين؟ كان في بلاد بره وبعدين دخل الجامعة وبعدين بقى وكيل نيابة.

جابر: لا أنا أكيد شفته، قلبي بيقولي كده.

سعيد: أنت ما قلتليش أنت كنت جاي في إيه؟

جابر: بعدين..

وذهب مسرعًا إلى أم عرقوبة لكي يتحدث معها في موضوع سعيد وحاتم وما سمعه وما شاهده، إذ كان دائمًا يتحدث معها في كل شيء يحدث له.

ام عرقوبة: يعني أنت شفت إيه.

جابر: قولي أنت حاسس بإيه!

أم عرقوبة: طب أنت حاسس بإيه؟

جابر: حاسس بإحساس كبير من ساعة ما شفت حاتم بيه، وكمان سعيد، حاسس زي ما يكون شفتهم قبل كده؟

أم عرقوبة: هيكون شفتهم فين قبل كده؟ هو مش سعيد قال لك إن حاتم كان في بلاد بره؟

جابر وهو يهز رأسه: ممم.

أم عرقوبة: طب راح تكون شفته فين وأنت ما تعلمتش ولا سبت البيت ده من يوم ما زينات جبتك للدنيا؟

جابر: وسعيد؟

أم عرقوبة: حتى سعيد مش من النواحي دي.

وفجأة جاء حب وهو فرحان ومسرور ويحمل في يده شنطة وجاء إلى جابر وأعطاه الشنطة.

جابر: دي إيه يا حب؟

حب: دي بقى حاجة كده علشان تحضر بها خطوبتي على شهد.

جابر وهو حزين: خلاص نويت تخطب؟

حب: نعم، أنا يا جابر بحبها.

جابر: ألف مبروووك وعقبال الليلة الكبيرة.

حب: عقبالك وأفرح بيك، (ونظر إلى عرقوبة وأمه) وأنت كمان معايا في العربية شوية حاجات لزوم الفرح.

أم عرقوبة وهي تنظر إلى جابر وقلبها يتقطع عليه لأنها تعرف أن جابر وشهد كانا يحبان بعضهما.

خرج حب مسرعًا إلى الداخل وذهب إلى زينات هانم وارتمى في حضنها وهو في قمة السعادة والفرح والسرور، ودخل حندوقة بيه وجرى عليه حب وأخذ يقبله وهو فرحان وجابر واقف يشاهد المنظر وفرحة أخيه حب، وبلع ريقه وخرج مسرعًا إلى أم عرقوبة وأخذ يبكي، وأم عرقوبة وابنها عرقوبة يشاهدان زعل جابر، وقامت أم عرقوبة بمواساته وشد أزره لكن جابر تركهم وركب سيارته وذهب ولا يعرف إلى أين يذهب.

بعد نصف الليل عاد جابر بعد أن سهر مع الصبيان في المخزن وكان في انتظاره أبوه حندوقة بيه، وأخذ ينظر إليه وهو صاعد إلى غرفته من دون أن يشعر بأبيه.

وجاء يوم الذهاب إلى بيت شهد لكي يخطبوا شهد إلى حب، وكان والد شهد ينتظرهم وشهد لا تعرف، وكانت تقف في بلكونة حجرتها، فشاهدت حندوقة وزينات وحب ومعهم جابر، فنظرت إليهم واستغربت وقالت: هما جايين ليه؟ ولكنها كانت تنظر ناحية جابر وجابر كان ينظر إليها من دون أن يشعر به أحد، حتى دخلوا عند والد شهد الذي استقبلهم بحفاوة وقال للشغالة بأن تبلغ الهانم وشهد بوجود زينات هانم وحندوقة وأولادهم.

جرت الشغالة على الهانم ومعها شهد التي عرفت من خلال وقوفها في بلكونة حجرتها وشاهدتهم وهم يدخلون الفيلا، فدار في رأس شهد أن يكونوا من أجل.. لا لا لكنها قالت لنفسها جابر كان معها البارحة، فهل يا ترى يكون عامل مفاجأة؟ لا ما أظنش!! وهي سرحانة تفكر في جابر، جاءت أمها وقالت لها: شهد ما تلبسي وتيجي؟ أبوكي معاه ضيوف عاوزين يشوفوكي.

شهد بمكر: آه آه ضيوف؟ ضيوف مين يا ماما؟

أم شهد: حندوقة بيه وزينات وأولادهم.

شهد: طب وأنا مالي؟ دول ضيوف بابا.

أم شهد قرصتها في وجهها وهي مبتسمة: يا أونطجية.

شهد: فيه إيه يا ماما؟

أم شهد: الظاهر كده حندوقة جاي يخطبك لحد من أولاده.

شهد تنهدت وسكتت وفكرت وفي كل خاطرها جابر، فابتسمت وقالت: جابر؟

أم شهد: جابر؟ واشمعنا جابر؟ ممكن يكون حب.

شهد: جابر؟

أم شهد وهي تنظر إلى شهد: جابر هو شاب جدع.

شهد قاطعتها: جدع وشهم وشايل كل حاجة وهو اللي شريك بابا حتى كمان اسألي بابا يقول إن جابر حندوقة أحسن شاب في شباب اليومين دول.

أم شهد تنظر إلى شهد وهي تتحدث عن جابر وهي متحمسة: فيه حاجة يا شهد.

شهد: حاجة إيه يا ماما؟

أم شهد: حاجة كده ولا كده بينك وبين جابر؟

شهد بمنتهى الصراحة: أيون احنا بنحب بعض.

أم شهد ضربت على صدرها: أنتوا بتحبوا بعض ازاي يا بنتي؟ ده جابر...

شهد قاطعتها: أيون هو مش متعلم لكن واد مفتح وعارف ازاي يكون ناجح.

أم شهد: بس أنتي خريجة جامعة.

شهد: أيون وهو مش خريج أي مدرسة لكن بحبه أوي يا ماما.

أم شهد: وأنتي شايفة إن أبوكي ممكن يوافق عليه؟

شهد: ما تنسيش إن بابا مش متعلم.

أم شهد: وأنا كمان زي أبوكي.

شهد: وأبويا رجل أعمال ناجح.

جاءت الشغالة تستعجلهم لأن البيه بيسأل عليهم.

أم شهد: خلاص قفلي على الكلام ده، لما نشوف أبوكي عاوز إيه. يلا غيري هدومك وانزلي بسرعة.

نزلت شهد وأمها ليسلموا على الضيوف، وكانت شهد تنظر إلى جابر نظرات العيون، وأمها تنظر إليها وتحاول أن تلفت نظرها أن توقف هذه النظرات.

حندوقة: ازيك يا شهد؟

شهد سرحانه في النظر إلى جابر.

أم شهد مسرعة: شهد عمك حندوقة بيسلم عليكي.

وغمزتها في فخذها.

شهد: آه آه أهلًا وسهلًا بيك يا عمي، ازيك يا طنط؟

باقي الفصل الثالث

شهد: ازيك يا طنط؟

زينات هانم: ازيك يا حبيبتي وبنتي، أنتي عاملة إيه؟

شهد: كويسة.

زينات هانم: حب ابني دايمًا بيجيب في سيرتك.

شهد مش هنا كل تفكيرها في جابر، وجابر مش معاها خالص، بل يجلس وهو روحه رايحة منه.

زينات هانم: تعالي شهد بجواري هنا.

أم شهد: قومي يا شهد بجوار طنط.

شهد: قامت وجلست بجوار زينات هانم وهي لا ترى.. ولا تسمع غير جابر.

حندوقة: يا معلم دبور احنا جايين نخطب بنتك شهد إلى حب.

شهد سمعت حب تركت الجلسة وجرت إلى الأعلى وهي تبكي مذهولة من الخبر.

أم شهد وهي محروجة: شهد شهد. (فلم ترد شهد فنظرت إلى زينات هانم) شهد مكسوفة من الخبر الحلو ده.

زينات هانم: أيوه ههه أنا عاذراها. (وتنظر إلى حب) أصل الواد حب عسل.

حب نظر إلى أمه زينات هانم وهو متضايق ومحروج من كلمة الواد.

زينات هانم فهمت إن ابنها حب اتضايق من كلمة الواد فقالت: حب كبر وبقى عريس كل البنات تتمناه.. (ونظرت ناحية جابر بخبث) وكمان خريج جامعه زي شهد.

جابر وضع وجهه في السجادة من الكسوف والخزي.

حندوقة بسرعه تدارك الأمر: وجابر ابني جدع وشاب جامد يدير أعمالي كلها ويحقق نجاحات كبيرة؟

المعلم: أيوه أنت راح تقولي، ما أنا معاه خطوة بخطوة.

جرت أم شهد وصعدت وراء ابنتها شهد ودخلت عليها حجرتها وجدتها مرمية على السرير تبكي بحرقة.

أم شهد جلست بجوارها وطبطبت عليها: قومي يا شهد فوقي يا بنتي خلاص ما عتشي له لازمة، أبوكي قرأ الفاتحة معاهم والموضوع خلص، وكمان حددوا ميعاد الخطوبة وكمان الفرح.

شهد رفعت راسها بكل غل وكراهية: أنا ما بحبش حب أنا بحب جابر.

أم شهد: اوعي تقولي لأبوكي كده، كان يموتك.. وبعدين تعالي هنا، حب ده مش كان زميلك في الجامعة؟ يعني عيبه إيه؟ اعملي معروف يا بنتي وبلاش تغوي الشيطان.

شهد: أنا ما بحبوش وكمان بكرهه ودمه تقيل.

دخل أبوها عليهم وسمع كلام شهد فجرى عليها ومسكها من ذراعيها وجذبها إليه..

المعلم دبور: اسمعي يا بت أنتي، الكلام اللي أني سمعته ده كلام فارغ، حب ومش عارف إيه! أنا خلصت وقرأت الفاتحة وحددت ميعاد الخطوبة والفرح، إياكي أسمع كلام غير اللي أنا عملته، أنا تاجر ولي أعمال مع حندوقة وأولاده معنديش استعداد أخسر أعمالي وتجارتي اللي طول عمري عمال أكون فيها علشان أسمع كلام فارغ، أنتي سامعة؟

وقذفها على السرير وهمَّ بالخروج وأم شهد تجري وراءه حتى دخلوا حجرتهم.

أم شهد: براحة شوية على البنت.

أبو شهد: أيه يا ولية الكلام اللي أني سمعتة ده؟

أم شهد: البنت بتحب جابر.

أبو شهد: جابر أخو حب؟

أم شهد: أيوه.

أبو شهد: يا دي المصيبة.

أم شهد: شفت بقى.

أبو شهد: بس ماعتشي ينفع.

أم شهد: أني عارفة بس هنعمل إيه؟

أبو شهد: دماغي وقفت معتش عارف أفكر، هو صحيح الواد جابر جدع ومعلم ومفتح بس اللي اتقدم حب مش جابر.

أم شهد: احنا في ورطة.

أبو شهد: أيون احنا في ورطة كبيرة.

أم شهد: وأنت هتعمل إيه دلوقتي؟

أبو شهد: أنا مش عارف، دماغي واقفة خالص.

أم شهد: أني عندي فكرة.

أبو شهد: فكرة إيه؟

أم شهد: ابعت هات جابر واتكلم معاه.

أبو شهد: أجيب جابر وأتكلم معاه أقول له إيه؟

أم شهد: خد رأيه وشوف رده عليك.

أبو شهد: أنتي اتهبلتي يا ولية؟

أم شهد: اسمع بس الكلام وأنت تشوف وتفكر.

أبو شهد: أني خلصت خلاص ما ينفعشي.

أم شهد: هو أنت هتقول له إني عاوز أرجع.

أبو شهد: طب أقول له إيه؟

أم شهد: اتكلم معاه بشكل لف ودوران، شوف كلامه إيه؟

أبو شهد: افرض قال أنا عاوز شهد.

أم شهد: قول له ارجع لأبوك.

أبو شهد: يعني عاوزاني أكون سبب في فتنة بين الواد وأبوه، وكمان حب أخوه، لا لا فكرة وحشة.

خرج أبو شهد وهو يفكر في كلام أم شهد والشيطان يلعب في رأسه، وبدأ يخطط كيف يتكلم مع جابر، وما هي الوسيلة التي يفتح بها الحوار وأي طريقه يدخل بها ووو أشياء كثيرة تجري في رأسه، وفجأة رفع رأسه ونظر ناحية أم شهد، والتي كانت تنظر إليه وهو يركب السيارة متجهًا إلى عمله، وقال: أنتي يا أم شهد شيطانة.

زينات هانم كانت مسرورة لفرح ابنها حب، فكانت الدنيا مش سايعاه وجابر واقف وهو حزين.

حب: واد يا جابر أنا فرحان ومسرور.

جابر ينظر إلى حب ولا يتكلم.

حب: مالك يا واد يا جابر؟ إيه مش فرحان علشان أخوك الكبير؟

جابر: لا أنا فرحان لك بس ما شفتش في الجامعة كلها غير شهد؟

حب: أيوه هي ملكة الجامعة كلها، تعرف يا جابر أنا بحبها واحنا صغيرين، كنت وأنا صغير أحب أروح عندهم وأشوفها، هي صحيح كانت بايخة ودمها تقيل ولما كانت تشوفني كانت تضربني وأنت كنت بتضربها علشاني، بس كنت بحبها.

جابر: ربنا يتمم بخير.

زينات هانم: عقبالك يا جابر.

جابر: من قلبك؟

زينات: اخص عليك، أنت ابني برضه.

جابر: أنا شاكك إني أكون ابنك.

زينات هانم وهي تتعثلم في الكلام: ليه كده؟ أني عمري فرقت بينكم؟

جابر: إحساسي يكفيني.

زينات هانم: أنت واد دمك تقيل، هو ده وقته؟ افرح أخوك الكبير فرحان.

جابر ذهب ناحية حب ونظر في عينيه نظرة قوية، فشاهد عيون حب فيها فرحة عارمة وسرور داكن، فأخذه في حضنه وبارك له وانصرف.

وهو خارج مسرعًا قابل أم عرقوبة فأخذت تجره من ذراعه ناحيتها وهي حزينة عليه، فنظر إليها وتركها وركب سيارته وذهب وهو لا يدري أين يذهب، حتى وصل عند سعيد، فنزل من السيارة وأخذ ينظر إلى سعيد وهو يقول في نفسه: أنا إيه اللي جابني للعزبة؟ وليه الراجل ده أنا فعلًا برتاح لما بقعد معاه؟

وكان سعيد مشغول في الحسابات ولم يدرِ بوجود جابر الذي كان يقف على رأسه وهو يحسب في الدفاتر، فرفع سعيد رأسه فوجد جابر أمامه ينظر إليه بتمعن، فاستغرب سعيد وقام وقابل جابر مسرعًا، وأخذه إلى أقرب مقعد، فجلسا ينظران إلى بعضهما.

سعيد: فيه حاجة يا جابر بيه؟

جابر: لا ما فيش حاجة، بس أنا حزين جدًّا.

سعيد: خير يا ابني؟ ينفع أقول لك ابني؟ ما أنت في سن ابني كان في سنك كده.

جابر: ربنا يرجعهولك بالسلامة.

سعيد: أخوه وأخته.

جابر: وأخوه وأخته.

سعيد: مراتي جابت بنتي وبعدها بأربع سنوات جابت ابني وبعدها ابني.

جابر: يعني أنت كان عندك ولدين وبنت؟

سعيد: ما أني حاكي لك قبل كده.

جابر: أيوه.

سعيد: مالك يا ابني؟

جابر: تصدق أني لما أكون زعلان رجلي بتجيبني لعندك!

سعيد: تصدق أني بحبك وقلبي دايمًا بيفكر فيك!

جابر: أنت راجل طيب يا عم سعيد.

سعيد: ممكن تقول يا والدي.

جابر وهو يضحك بالعافية: حاضر.

وجلس جابر بجوار سعيد، وبكي جابر بكاء الطفل، فاندهش سعيد ووجع قلبه على بكاء جابر، فأخذ يهدئ من بكائه، لكن جابر لم يستطع أن يوقف البكاء، وفجأة دخل عليهم حاتم بيه، فنظر إلى جابر وسعيد واندهش لهما، وسأل: فيه إيه؟

سعيد وقف مفزوعًا لرؤية حاتم بيه، عمره ما دخل إلى هذه الحجرة من يوم ما جاء سعيد للعمل مع أبيه مجد الكروم، ونظر سعيد إلى حاتم بيه: فيه حاجة يا حاتم بيه؟

حاتم بيه: لا يا عم سعيد أنا شفت عربية غريبة واقفة قدام السرايا فجين أعرف مين صاحبها.

سعيد: صاحبها الأستاذ جابر.

حاتم بيه: أيوه اتقابلنا قبل ذلك.

سعيد: نعم.

حاتم نظر إلى جابر وانشد ناحيته بصورة غريبة، ومن ساعة ما قابله المرة الماضية وهو يفكر فيه ومش عارف ينساه.

جابر مسح دموعه ووقف ليستقبل حاتم بيه: أهلًا بحضرتك.

حاتم بيه: أهلًا بيك.

سعيد: أنت رايح للشغل يا حاتم بيه؟

حاتم: أيوه يا عم سعيد، عن إذنكم. (وتوجه ناحية جابر) أنا عاوز دايمًا أشوفك، والمرة الجاية هقعد معاك.

وخرج حاتم وهو يسأل نفسه: إيه اللي بيشدني لجابر؟ فيه حاجة مش فاهمها، أنا مشغول بجابر ده.

سعيد وقف ينظر إلى حاتم وهو ينصرف ويستغرب من طريقته، لأول مرة يشوفه دماغه مشغولة بهذه الصورة، رجع سعيد داخل الحجرة إلى جابر حتى يعرف سبب بكائه ويطمئن عليه، لأن قلبه وجعه جدًّا من منظر جابر وهو يبكي.

جابر وقف لكي ينصرف؟

سعيد: رايح فين؟ لا اقعد لما أعملك شاي، ولا أقول لك تفطر معايا، أنا لسه ما فطرتش، مش جاي ليَّا نفس، تعالى نفتح نفس بعض.

جابر: لا أنا لازم أمشي.

سعيد: شجعني أفطر لاحسن أحلف ما أني فاطر.

جابر: لا خلاص وأنت ذنبك إيه!

سعيد: قولي مالك؟ أنا زعلان جدًّا عليك.

جابر: لا مافيش حاجة.

سعيد: تعرف أنا اسمي إيه بالكامل؟

جابر: اسمك إيه يا عم سعيد؟ (نظر سعيد له لكي يذكره بالاتفاق، فلحق جابر نفسه وقال) يا والدي.

ضحك سعيد وفرح من كلمة أبي وأخذه في حضنه.

سعيد: أنا اسمي سعيد سعد مسعود، وأنا الحمد لله لا سعيد ولا سعد ولا مسعود.

جابر: ليه؟ أنت أسعد الناس.

سعيد: تعرف يا جابر يا ابني، أني كان عندي توأمين عمر وعماد، هما توأمين صحيح بس مش شكل بعض، أنت عارف إن التوأم بيكونوا زي بعض.

جابر: أيوه زي بعض في كل حاجة.

سعيد: أنا بحبك أنت وحاتم بيه، لأنني بشوفكم زي أولادي التوأم، طبعًا العين ما تعلاش على الحاجب.

جابر: وليه كده بس يا والدي؟

سعيد نظر إلى جابر نظرة حب وحنين: أنت مالك يا ابني؟

جابر حكى له قصة شهد.

سعيد: وأنت ناوي تعمل إيه؟

جابر نظر إلى السماء: ما باليد حيلة.

سعيد: حب أخوك الكبير.

جابر: أيوه أنا عارف، بس هو اللي اتعدى عليَّا.

سعيد: بس هو ما يعرفشي اللي بينك وبين شهد.

جابر: وأنا ذنبي إيه؟

سعيد: ذنبك أنك أخوه الصغير وأنت اللي المفروض تفرح له.

جابر قاطع الكلام: هو أني هفضل طول عمري أضحي؟ هفضل طول عمري أحافظ على أخويا الكبير؟ طب الكبير ما بياخدش باله من الصغير ليه؟ عارف يا عم سعيد.. أقصد يا والدي، أنا جيت الدنيا علشان أخدم حب ومن غير عطف ولا حنية من أمي، يمكن أبويا معايا شوية عن أمي، بس بردك حب واخد حبهم وعطفهم، وأني رقم اتنين.

سعيد: ما أنت فعلًا رقم اتنين (وضحك وطبطب عليه) ولا يهمك كلنا بنحبك أنت، مش بتقول عندكم أم عرقوبة وابنها عرقوبة بيحبوك أحسن من حب؟

جابر: أني بيتهيألي إن عرقوبة أخويا وأمه أمي ومش زينات هانم.

سعيد: وأنا أبوك هههه.

جابر نظر في عيون سعيد: فعلًا نظراتك دي أنا بحس بيها عن أبويا حندوقة، الحب اللي في عينيك مش في عيون حندوقة، العطف اللي أنا حاسه مش عند حندوقة.

سعيد: يكونشي أنت ابني وأنا ما أعرفشي؟!

وضحكوا بهزار وانصرف جابر وعاد إلى زينات هانم وحندوقة بيه وحب.. وكانوا ينتظرون عودة جابر لكي يتحدثوا عن ليلة الخطوبة، ولكن حندوقة كان له رأي آخر.

حندوقة: أنا ليَّا رأي عاوز آخذ رأيكم فيه.

زينات هانم: هو إيه؟ أتكلم.

حندوقة: أنا عاوز يكون فرح علطول، لا خطوبة ولا يحزنون.

زينات هانم: أنا معاك، حب وشهد عارفين بعض وهما عيال صغيرين، ولا إيه يا جابر؟

جابر مش معاهم كانت دماغه مشغولة.

زينات هانم: جابر!

جابر: أيوه أيوه.

حندوقة: جابر مش معانا.

جابر: لا بس أنا بفكر في الشغل.

زينات هانم: حندوقة خلص يلا.

ذهب حندوقة إلى أبي شهد واتفقوا على كل الترتيبات اللازمة.

بعد أن خرج حندوقة من بيت أبي شهد المعلم دبور.. دخل إلى شهد وبلغها بالاتفاق.

شهد: بس أنا كنت..

أبو شهد: أنا عارف يا بنتي بس نعمل إيه؟ النصيب.

شهد: أنا كده بموت.

أبو شهد: اتقبلي الأمر.

شهد: غصبن عني؟

أبو شهد: أيوه.

شهد: ليه؟

أبو شهد: علشان خاطر أبوكي ما يدخلشي السجن، أنا يا بنتي خسرت كل فلوسي وأخذت سلفة من حندوقة علشان أقف على رجلي من تاني، ولو رفضتي، حندوقة ممكن يدخلني السجن بالشيكات اللي معاه اللي ميعاد استحقاقها فات.

شهد: أنت بتقول إيه يا بابا؟

أبو شهد: هي دي الحقيقة.

شهد: وماما تعرف؟

أبو شهد: لا محدش يعرف إلا أنتي.

شهد: خلاص يا بابا اعمل اللي أنت عاوزه.

شهد استعدت للفرح وحاولت أن تقابل جابر، لكن جابر كان يبعد بعيد من أجل حب أخوه.. وجاء يوم الفرح والسعادة على وجه حب وهو ينظر إلى شهد، وشهد تنظر إلى جابر، وجابر يتهرب من عيون شهد.. وجاء سعيد ومعه مجد الكروم وحاتم بيه لحضور الفرح، وجاء منصور وزوجته وأولاده..

وكان منصور ينظر إلى التوأمين وهو مسرور بنجاح خطته، ولكن مجد الكروم تفاجأ بوجود منصور، فانتفض من مكانه، وأراد أن يغادر، لكن حندوقة رفض أن يغادر المكان، وانتهى الفرح وكل واحد ذهب..

ودخلت شهد فيلا حندوقة وأصبحت بجوار جابر، لكنها زوجة حب، وكانت تنتهز أي فرصة لتخلو بجابر، لكن جابر لم يعطها الفرصة، وكان كثيرًا ما ينام في المكتب، وتكررت محاولات شهد، لكن أم عرقوبة كانت تساعد جابر في الهروب من أمام شهد، دائمًا كانت أم عرقوبة وابنها عرقوبة في ظهر جابر حتى لا تتمكن منه شهد، ويعرف حب بهذا هو وأمه وأبوه، وتكون شهد سببًا في خراب البيت.

لكن زينات هانم لاحظت اهتمام شهد بجابر وتركها حب، فتحدثت مع ابنها عن علاقته بزوجته..

حب: أنا مش عارف هي فيها إيه؟ دايمًا تبعد عني.

زينات هانم: يعني إيه؟

حب: احنا متزوجين من ستة أشهر وما فيش عاطفة بينا.

زينات هانم: يعني ما حصلشي بينكم حاجة؟

حب: حاجة إيه؟

زينات هانم: حاجة بتاع العرايس.

حب: حصل بس بسيط.

زينات هانم: وبسيط ليه؟ أنت إيه مش عارف تشغلها؟

حب: هي مرة أنا تعبانة ومرة مش دلوقتي.

زينات هانم: أترنك متأخر في الخلفة وأبوك كل يوم يسألني.

حب: اوعي تقولي لحد.

زينات هانم: فيه إيه يا ابني؟

حب: احنا رحنا لدكتور قال لسه شوية.

زينات هانم: شوية ازاي؟ مين اللي عنده العيب؟

حب: هو مش عيب، شوية ضعف عندي.

زينات هانم ضربت على صدرها: عندك؟

حب: إيه؟ وطي صوتك محدش يعرف.

زينات هانم: وبعدين؟

حب: الدكتور كتب شوية مقويات وفيتامين.

زينات هانم: أيوه كده، أتاري يا عيني البنت مكسورة.

حب: يعني.

دخل حندوقة: أخبارك إيه يا حب؟

حب: الحمد لله.

حندوقة: هو أنا عاوز أكون جِد.

زينات هانم: كله بأمره، احنا هنربطه بعيال دلوقتي ليه؟

كانت شهد تقف وتسمعهم وهي في حالة غضب، وعندما سمعت صوت جابر نزلت مسرعة إلى الدور الأول من الفيلا، وجاءت إلى جابر وسلمت عليه: أنت فين من زمان؟

جابر: شوية شغل.

شهد: شغل إيه اللي ياخدك مننا؟

زينات هانم نظرت بمكر إلى شهد وجابر، لكن شهد لم تتوقف عن النظر إلى جابر.. لاحظت زينات هانم أن شهد تنظر إلى جابر نظرات إعجاب، فقالت لحندوقة هذا الإحساس، لكن حندوقة كان يعرف جابر جيدًا وأن أخلاقه عالية، وحاول أن يطمئن قلب زينات هانم، لكنها لم ترتَح، فكلفت أم عرقوبة تراقب شهد وتنقل لها أخبارها، ولكن شهد لم تترك جابر في حاله، ودائمًا تعترض حياته داخل الفيلا وخارجها، والسؤال عليه حتى وصل الشك في صدر زوجها حب وبدأ يتجسس على شهد، وتأكد من حبها لأخيه جابر، فواجهها بحبها لجابر، فلم تنكر وأكدت ذلك، فضربها حب وخرج غضبان وأمسك المسدس، وعندما جاء جابر ضربه بالمسدس فوقع جابر على الأرض غرقان في دمه،

جاءت أم عرقوبة مسرعة هي وعرقوبة، وجاءت زينات هانم وحندوقة وحملوا جابر إلى المستشفى لكي ينقذوه، وجلس حب على الأرض يبكي، وجرى إلى سيارته وهرب، ولكن وهو يهرب سقطت السيارة في الترعة وبداخلها حب، فتجمع الأهالي لينقذوا من بداخل السيارة، وحاولوا إنقاذه، لكن مات حب غرقًا داخل سيارته.

كانت زينات هانم وحندوقة ومعهم شهد في المستشفى مع جابر، فجاء الدكتور ليكشف على جابر وتم تحويله إلى غرفة العمليات، ووقف منصور يستغرب لما يحدث ويتعجب.. الدكتور أخو جابر، وأختهم تقف بجوارهم ولا يعرفون بعضهم، وعلم سعيد بما حدث فجاء مسرعًا إلى المستشفى، وعندما دخل على بنته عرفته وهو لا يعرفها، كانت ذكية جدًّا، وصاحبة ذاكرة قوية، فلم تشاهده منذ عشرين عامًا لكنها عرفته.. عندما طلبت المستشفى دم فكانت فصيلة سعيد نفس فصيلة جابر، وعندما كتبوا اسم المتبرع: سعيد سعد مسعود. وقعت عنبة على الأرض مغمى عليها، فحملتها الست خالة منصور ومعها منصور، واستغربت مما حدث، ولم يهتم سعيد، لكنه خائف على جابر.. وأفاقت عنبة فسألت عن سعيد.

الست: سعيد مين؟

عنبة: الراجل اللي اتبرع بالدم.

الست: الراجل جالس في الاستراحة مستني خروج المصاب اللي في غرفة العمليات.

عنبة: سعيد أبويا.

منصور: بتقولي إيه؟

الست: سعيد ده أبوكي؟

عنبة: أيوه أبويا.

منصور: دماغي هيفط مني، أنا مش قادر!

الست: مالك؟

منصور ماشي يكلم نفسه: معقول اللي بيحصل ده؟ سبحان الله.

الست: الواد ماشي بيكلم نفسه.

عنبة همَّت للنزول من على السرير؛ لكي تبحث عن أبيها سعيد فوقعت على الأرض، إذ كانت ضعيفة جدًّا، وحقنة المهدئ مفعولها مستمر.

فحملتها الست ورفعتها على السرير وذهبت لتبحث عن سعيد حتى وجدته.

الست: أنت سعيد؟

سعيد: أيوه أنتي مين؟

الست: أنت مش عندك بنت اسمها عنبة؟

سعيد أمسك بالست: أيوه!

الست: تعالى معايا.

سعيد قلبه هيقف من المفاجأة: أجي معاكي فين؟

الست: هنا.

سعيد: هنا فين؟

الست: في الأوضة دي.

سعيد دخل الحجرة فوجد بنتًا تنام على السرير، فتوجه إليها ونظر إليها، وقال: بنتي!

وحضنها بقوة وهو يبكي، وهي تبكي، والست تبكي، وكل من في الحجرة يبكون.. فحكت له ما حدث لأمها وإخوتها، وعرف كل ما حدث، وكان يبكي بشدة على ما حدث لزوجته وأولاده، ودخلت ممرضة عليهم وقالت: فيه واحد غريق وصل المستشفى.

الست: غريق؟

الممرضة: أيوه، الأهالي جابوه بيقولوا ضرب أخوه بالنار وركب السيارة فوقع في الترعة فغرق.

سعيد: أيوه ده اللي ضرب جابر بالنار.

عنبة: جابر مين؟

سعيد: دول ولاد حندوقة بيه، واحد ضرب واحد بالنار، والتاني جه يهرب وقع في الترعة فغرق، لا حول ولا قوة إلا بالله!

عنبة: وأنت هنا ليه؟

سعيد: جاي علشان جابر.

عنبة: وأنت تعرفه؟

سعيد: أيوه، ابن حندوقة، وهو اللي بياخذ المحاصيل الزراعية من عندنا.

زينات هانم عرفت أن حب جاء إلى المستشفى غريقًا؛ فوقعت على الأرض، وجرى حندوقة إلى غرفة الاستقبال ينظر إلى ابنه حب وهو يبكي: أنت عملت كده ليه يا حب؟

وحب نائم ميت.. وحندوقة يجلس إلى رأسه يتحدث معه.. ومنصور يقف وهو مستغرب من الأحداث التي وقعت، وكيف يمكن أن يُكتشف السر وخالته تعرف الحقيقة.. فجرى إلى الدكتورة إيمان وحكى لها ما حدث، وأن المصاب أخو الدكتور.. فالكل كان مذعورًا وخائفًا أن يظهر السر وتنكشف الحقيقة.

فجاء مجد الكروم مسرعًا ومعه ابنه حاتم بيه وكيل النيابة..

ومنصور يشاهد المنظر ووقف يتكلم مع نفسه: معقول؟ سبحان الله! الأب والأولاد كلهم هنا.. الأب سعيد، والبنت عنبة، والأبناء التوأمان عمر وعماد، حتى المولود الذي أصبح طبيبًا هو الذي يقوم بإنقاذ أخيه..

والست تنظر إلى منصور وهو يمشي في طرقة المستشفى.. يحدث نفسه وسوف يذهب عقله: معقول السر يظهر بعد أكثر من عشرين سنة؟!